

الجزء الثاني

الثورة

«إني أمتصخ مغمفرتك يا سيدنى
لقد أخذت بجريرة هذه الماكرة الفينيبية
التي تزوجها عطيل»^(١)

(من رواية عطيل لشكسبير)

(١) لقد منعت السلطات في مدينة الكاب دخول رواية عطيل في أفريقيا الجنوبية لأنها تتعارض مع الصالح العام في هذه البلاد.

الباب الخامس

مملكة السياسة

« اجتمعوا أولاً عن مملكة السياسة » هذه الكلمات التي على نسق الكتاب المقدس قالها كوامي نيكروما زعيم حزب المؤتمر الشعبي الذي ناضل حتى انتهى إلى استقلال ساحل الذهب تحت اسم غانا . كان هذا الاصطلاح تعبيراً عن هدف معين .

أما بالنسبة للوسيلة فكان لزاماً أن تكون في أغلب الحالات هي إظهار التشدد أكثر فأكثر كلما توالت الإصلاحات التي تقرها الدولة الأوروبية المستعمرة تحت ضغط الأحداث التي أخذت تسير بسرعة متزايدة . ويمثل هذه التطلعات أصبحت حركة الإصلاح أحد الأهداف التي لها الأفضلية لدى الحركة القومية الأفريقية .

ولكى يجذر كوامي نيكروما المجاهدين في حزب المؤتمر الشعبي من خطر حركة الإصلاح هذه فإنه كان يوصيهم إبان الإصلاح الدستوري الذي صدر في عام ١٩٥١ قائلاً : لا يجب أن يقوم إخواننا بين أعضاء حزبنا أصحاب المقاعد في المجلس التنفيذي وبين الموظفين البريطانيين . ذلك لأن عالم يستطع الاستعماريون تنفيذه عن طريق الإصلاح العنيف فإنهم يأملون في ضمان نجاحه عن طريق حفلات الكوكيتيل .

ومن المعتقد والمقيد أن نتبين في هذا المقام أنه قد سار جنباً إلى جنب (بالتوازي) مع التطور الذي أعقب الإمبراطورية الفرنسية ، صار دستور عام ١٩٤٦ ، والاتحاد الفرنسي والقانون الأساسي لعام ١٩٤٦ والذي كان يمنح أراضي ما وراء البحار الفرنسية نوعاً من الاستقلال الذاتي وكذا دستور سنة ١٩٥٨ الذي أنشأ رابطة الشعوب الفرنسية وقانون ٤ يونيو سنة ١٩٦٠ الذي أسس به ما يسمى « رابطة الشعوب المحددة » والتي اندثرت الآن . ولقد مرت مستعمرنا ساحل الذهب ونيجيريا قبل حصولها على الاستقلال بعدة مراحل دستورية تابعت عليها في سرعة تقل عما حدث في

المستعمرات الفرنسية ، وكانت تلك المراحل المذكورة التي مرت بها نيجيريا تحمل كل مرحلة منها اسم حاكم معين أو وزير معين ، مثل دستور « كليفورد » عام ١٩٢٢ ودستور « ريتشرد » عام ١٩٤٦ ودستور « ماكفرسون » سنة ١٩٥١ و« ليتلن » عام ١٩٥٤ ، وقد سبق هذا منح الاستقلال الذاتي لثلاث مناطق من الاتحاد الفيدرالي الذي انتهى أخيراً إلى الاستقلال عام ١٩٦٠^(١) .
(ويقصد نيجيريا) .

ففي ساحل الذهب أدخل أول إصلاح تشريعي دستوري فيه عام ١٩٢٥ ثم حدث إصلاح آخر عام ١٩٤٢ ثم صدر دستور « بيرتر » في عام ١٩٤٦ ثم في عام ١٩٥١ أعيد تكوين المجلس التنفيذي حيث لا يزال يحتل فيه ثلاثة من كبار الموظفين البريطانيين مقاعدهم كأعضاء مسئولين ومكلفين ، وأخيراً دستور سنة ١٩٥٤ الذي أدخل النظام البرلماني ولكنه يترك الشؤون الخارجية والدفاع عن الدولة من اختصاص الحاكم العام . وسيعلن استقلال غانا عام ١٩٥٧ وسرعان ما سيحتفي كل أثر لإشراف التاج البريطاني عند إعلان الجمهورية .

لم تندفع عجلة التطور في سرعة في الأريضي الأفريقية الأخرى التي تتكلم اللغة الإنجليزية إلا أخيراً جداً ، مع أنها سارت على نمط معين جعل من قصور فيكتوريا في شارع لانكستر بلندن حيث تحل المؤتمرات مكاناً يستقبل وفود هذه المناطق التي لا تنتهي مطلقاً . كما أن أعمال هذه الاجتماعات التي لا تنتهي سواء أكانت تجمع وفود كينيا أو جزيرة موريس أو نياسالاند قد أصبح لها طقوسها الخاصة بها (وهي علاقة الأقلية بالأكثرية) داخل لجنة التحقيق الملكية . حتى أنه قد أصبح خروج مندوبي الأحزاب المناهضة لسير الأعمال أو احتجاج المجموعات الصغيرة التي لم يعترف لها بحق الاشتراك في هذه المؤتمرات ، أصبحت كل هذه الأمور أحداثاً روتينية بالنسبة لإدارة العلاقات السياسية بوزارة المستعمرات أو لإدارة العلاقات الخارجية للكومولث .

أما بالنسبة لأنواع النقد التي كان لا بد لها من أن تصاحب الإصلاحات في المناطق الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية أو الناطقة باللغة الإنجليزية وكل ما وجه من اتهامات للاستعمار ، كل ذلك استخدم كإطار حول هذا الموضوع الجديد ، لأن هذا الوضع الجديد لم يغير من جوهر المشكلة وهي الاستعمار ، فقد أعلن غير الراضين عن هذا الإصلاح اتهاماتهم له وكانت هذه الاتهامات صحيحة . حتى حين تم الاستقلال كانت لا تزال هناك حاجة ملحة لتصفية ديول الاستعمار ، منها

(١) ألف القاتوني النيجيري « كالمو أوبراه » كتاب عن التطور الدستوري في نيجيريا تحت عنوان « التقدم الدستوري في نيجيريا » .

على وجه الخصوص القواعد العسكرية التابعة للدول المستعمرة السابقة . وكان هناك احترام متزايد من أخطار بالاستعمار الجديد الذى يظهر فى التسلط القائم فى المعاهدات الاقتصادية والمالية (معاهدات المعونة) .

وسيقول الأوروبي فى عاصمة بلاده إن هذا هو السير الطبيعي للأمر ، ويرد الأفريقى على هذا بقوله إن هذا الاحتراس ضرورى من جانبنا . فى عام ١٩٥٧ حيث ظهر كتاب « نامدى أزيكويه » الذى أدان فيه الاستعمار . . فى مقدمة الكتاب يقول المؤلف : فى الصراع القائم بين من يملكون (القوى التى أخذت المستعمرات فى أفريقيا) ومن لا يملكون (القوى الأوروبية التى لم تنعم مستعمرات فى أفريقيا وأبعدت عنها) كان الأفريقى فى نظرهم أنه خلق ليخدم الإمبريالية ولا وزن لشخصه عندهم ، وأن المواد الخام التى يجلبها الأفريقى للأوروبى هى أهم كثيراً من الأفريقى نفسه ، بل لها قيمة أكثر منه . وليس للبد العاملة إلا تسيير آلة الإمبريالية وإعداد الجنود من الناحية العسكرية التى تدافع عن الإمبريالية . « ويتابع الكاتب حديثه قائلاً : ولكن الأفريقيين غير مستعدين الآن لقبول هذه الأفكار المتبعة من الإمبريالية . فإن أفريقى القرن العشرين وأفريقيا الناهضة سيكونون عنصراً لا بد أن يعمل حسابه « ذلك هو الموضوع » موضوع الكتاب « فى إبراز أهمية الأفريقى » .

كما أن المبادئ التى نادى بها « كوامى نيكروما » لم تكن أقل مرتبة من هذه الآراء السالفة . فعين رد فى كتابه « نحو التحرر من الاستعمار » على ما قاله وزير المستعمرات الإنجليزى : « السير أوليفر ستانلى » الذى قال فى خطابه إن مجرد وجود الإنجليز يمنح التفكك الخفيف الذى يحدث فى المستعمرات . فيصرخ فيه نيكروما قائلاً فى كتابه السالف الذكر : إن هذا الوجود البريطانى الذى يدعيه الوزير ويصفه بأنه للخير هو الذى حصد سنة ١٩٢٩ بالدافع الرشاشة نساء نيجيريا المسكينات العزلاوات من السلاح لا لشيء إلا لأنهن احتججن على الضرائب الباهظة . كما يواصل نيكروما صيحته فى وجه الإنجليز قائلاً : إنه حقاً الوجود البريطانى هو الذى أرغم العمال الأفريقيين على أن تخور قواهم فى المناجم والمزارع الواسعة نظير أجر حقير مقداره ٩ بنسات لقاء عشر ساعات من العمل المضى مع قطعة خبز تافهة - إنه الوجود البريطانى الذى اضطهد وعذب وسجن ونق زعماء الثقات لا للذنب إلا أنهم نادوا بتنظيم العمل والعمال فى المستعمرات . إن الوجود البريطانى هو الذى جلب الحرب والظلم والفقر والمرض وأبقى على الأمية والجهل بين أفراد الشعب المستعمر .

إنه الوجود البريطاني الذي يستنزف دم هذه الشعوب ليغذي « الأسد البريطاني » باللحم الأحمر .
هذه هي النتائج الناجمة عن الوجود البريطاني في المستعمرات .
و « سيزار » لم يكن أقل شرحاً في خطابه المشهور ضد الاستعمار حيث يقول : استعمار
وحضارة ؟ ! إن اللغة الكبرى في هذا المجال هي أن ينخدع السذج والبسطاء وأصحاب الضائرت
الظاهرة بنفاق جماعي قدير على صياغة وعرض المشاكل المسببة في قالب يجعلها شرعية بل حلالاً .
ويسفون عليها نوعاً من الخلود يعني جوهرها الكريه ، فالهمم إذاً في هذه الحالة أن نتبين الطريق في
وضوح وأن ننظر إلى الأشياء في وضوح وأن نفكر في أناة ووضوح ونصفي في حذر متزايد بأن نجيب
في بساطة على هذا السؤال البسيط البريء : ما هو إذاً الاستعمار وما مبدؤه ؟ فلتتفق على تعريفه بأنه
ليس عملية تشير وليس مشروعاً خيرياً وليس هو دفعاً بالجهل إلى الوراء ولا دفعاً للمرض
ولا للظلمة وليس هو نشراً لفكرة وجود الله ولا لنشر القانون ، وإنما يجب أن نقول في غير زعزعة
ولا تردد بأن كل هذا مؤداه لنتائج الاستعمار التي هي صراع بين المعاصر الأوروبي والقرصان والبقال
(تاجر الجملة) وصاحب السفينة والباحث عن الذهب وأصحاب الشهوات وأصحاب القوة ،
ويكمن وراء كل ذلك من مويقات شيخ الحضارة التي كانت في وقت ما تدعى أنها مضطرة أن تمتد
نظمها الاقتصادية على الصعيد العالمي .

في عام ١٩٥٨ كان لزاماً على المرء أن يختار بين « نعم » و « لا » في الاستفتاء الذي اقترحه
« دي جول » في مستعمرات ما وراء البحار . يستند « سيكوتوري » في حديثه إلى نص « سيزار »
الذي أصبح من النصوص المدرسية التي يتلقاها المثقفون الأفريقيون ، ولكنه يضيف إليه هذا
التعليق قائلاً : إن بيان سيزار واضح ودقيق ولا يمكن تجريده ولكنه يدفعا إلى أن نضيف سؤالاً آخر
هو : هل إزالة الاستعمار عمل ممكن حدوته ؟؟ من المؤكد أن استعمال هذه الكلمة « إزالة
الاستعمار » تتناقضها الأقواه بين المتطرفين الأوروبيين رغم أنه تخفى وراءها خدعة خطيرة (١) .

تمثال لهتلر :

من المسلم به أن تحرير الهند واندنجا « دين بن فوه » ومؤتمر باندونج واستقلال مراكش وتونس ،
والنجاح الأدبي في مصر بالنسبة لموضوع قناة السويس وكذا انتصار ماوتسي تونج ، كل هذه
(١) ورد ذلك في الجزء الأول من كتاب « العمل السياسي » الذي قام به الحزب الديمقراطي في غينيا في سبيل
تحرير أفريقيا .

العوامل كانت مصدر بهام الزعماء (زعماء أفريقيا الوطنيين) ، لذلك فقد أفاد «ندبانمجي سيقوليه» الروديسي من كتاب فلسفة الثورة لجمال عبد الناصر فاستشهد ببعض فصوله في كتابه بعنوان في «القومية الأفريقية» كما أن «نيكروما» جعل من نفسه تلميذاً من تلاميذ غاندي ، وسنغور . فقد تأثر الوزير التونسي أحمد بن صالح في كتابه «طريق أفريقيا نحو الاشتراكية» ويحتل ماوتسي تونج مكاناً إلى جانب «لينين» عند الكتاب الأفريقيين الماركسيين . ولكن من الواضح أيضاً أن الحرب العالمية الثانية كانت نقطة انطلاق في أفريقيا السوداء وكان لها أثرها الواضح في إزالة الاستعمار . فإن مطالبة المستعمرات بالإسهام في الحرب بالرجال كانت الدعوة لها تحت اسم محاربة التفرقة العنصرية التي ينادى بها النازيون ، كل هذا دفع فكرة إزالة الاستعمار دفعا قويا . وكان المثقفون الأفريقيون يؤمنون بذلك ويعوه جيدا ، والذي لاشك فيه أن «أليريتوجير» رئيس التحرير السابق في مجلة «الطالب الأفريقي الأمود» والذي اتهم عام ١٩٥٧ بالإضرار بأمن الدولة والذي أصبح بعد ذلك سكرتيراً عاماً لاتحاد أفريقيا وملاجاشي . هذا الرجل قد عبر عن تلك الأفكار بأقوى تعبير ، حيث كتب في صحيفة «أفريقيا الثائرة» ما يأتي : إن كثيراً من الأفريقيين يتحدثون علناً فيما بينهم من أحاديث خاصة أنه يجب إقامة تمثال للذكرى شخصية لعننا التاريخ هو «هتلر» والأمر في مظهره يبدو إرضاء نزوة قد تبدو غير مألوفة بل ومؤلة للفض ، ولكن الذي يجعله الأوروبيون جهلاً تماماً أن هذه الحرب العالمية الثانية قد أيقظت الأفريقيين وعظم وعيهم لدرجة كبيرة بل ومفزعة ، وفتحت أمامهم مجالات فيسيحة في العالم الخارجي وجعلتهم أرفع إحساساً تجاه أي ظلم يقع عليهم . فلم يعد يتجاهل الناس أو يتناسى هذا المثل الصادق حين وجه نائب أسود إلى الجمعية الوطنية الفرنسية تانياً قاسياً فقال : إننا حين ساعدناكم لتخلصوا من وطأة العال الهتلرية قد عضضنا رغيب الحرية عرفنا طعم هذه الحرية ، ويجب أن تفهموا جيداً أنه لا يمكنكم أن ترغمونا على نسيان طعم هذا الخبز (الحرية) .

وقد تردد نفس هذا النغم (نغم الحرية) بقلم «سبتول» إذ يقول في كتابه : «القومية الأفريقية» بعد الحرب العالمية الثانية قد وضعت مخططات للحد من السيطرة الإنجليزية والفرنسية في أفريقية . فقد قلتم إنه لاحق للألوان في السيطرة على العالم ، وإذا فليس للإنجليز أي حق للسيطرة على الأفريقيين» . كما أنه من ناحية أخرى ما قام به المحاربون القدماء من إثارة الأحداث التي تمت في عام ١٩٤٨ في أكرا وهي أحداث كان لها أثر كبير ومدى واسع ، ولذا نعتبر هذا التاريخ من أهم التواريخ في حركة استقلال ساحل الذهب .

فإن استخدام جيوش المستعمرات في الحروب الأوروبية وخاصة في فرق حمل المدافع الرشاشة وكانوا من السنغال الذين عملوا في حرب الجزائر قد ضمت في صفوفها أكثر من زعيم سياسي من أفريقيا .

فقد أفرد الوزير السنغالي السابق « عبدلاىلى » كتيباً خاصاً بعنوان « جنود المرتقة السود » وكان أسلوبه في هذا الكتيب قاسياً . وقد هاجم فيه المؤلف خاصة الجنرال « مانجين » لأن هذا الرجل السياسي يعتبر أن هذا الجنرال صاحب فكرة استخدام الأفريقيين السود في الجيوش حين نشر كتابه بعنوان : القوة السوداء » كما نشر بعض مقالات ، وألقى كلمات في عدة محاضرات عن استخدام السود كقوة . فيؤكد « عبدلاىلى » أن الجنرال ينادى باستخدام المحارب الأسود حتى لا يعرض المحارب الأبيض (الأوروبي) للسم . لذلك أثار غضب « عبدلاىلى » وحقه حين نادى « جول موثي » وزير داخلية فرنسا باستخدام جيوش المستعمرات الفرنسية لقمع الاضطرابات التي أثارها الشيوعيون في فرنسا عام ١٩٤٨ ، لقد أثار هذا النداء غضب « عبدلاىلى » أكثر من اشتراك الأفريقيين في الحربين العالميتين . كما يذكر الكاتب تدخل الكثير من أعضاء البرلمان الملونين السود في هذا الموضوع حين أثير ، ونخص بالذكر منهم « هاماني ديوري » رئيس جمهورية النيجر الحال وكيف أنه هاجم فكرة « الذين يستخدمون السود في العمل غير الجدير بالجنس الأسود » كما تدخل أيضاً « فيلكس تشيكاييا » نائب الكونغو الوسطى فقد صرح قائلاً : « لقد جعلوا من هؤلاء المحاربين قتلة . وقد استشر « لى » العار من الصفة التي كانت تطلقها الصحافة الفرنسية اليسارية على الأفريقيين بأنهم (السفلة السود) أو من التعبير الذي أطلقه الكاتب والنائب الشيوعي « أندريه ديفور » إذ قال عن السود : السود الخائنون لطبقتهم .

أما عن سيكوتوري فإنه يؤكد بأن أى تنظيم استعماري لم يفرق بين الأسود والأبيض بطريقة ولا مغضية أكثر من التفرقة التي قام بها جيش الاستعمار^(١) .

ويشتد غضب رئيس جمهورية غينيا ويقول نائراً بمناسبة استخدام الجيوش السوداء في الحروب الاستعمارية بعد عام ١٩٤٥ فيقول : إنكم بالأمس ونحت العلم الفرنسى قد واجهتم مشكلة تتعلق بالضمير ، كان من اليسر معرفة مدى عمقها وأثرها (في مراکش وتونس وفييتنام والجزائر)

(١) من كتاب « أعمال الحزب الديمقراطي والفتنى والكفاح في سبيل تحرير أفريقيا » ص ١٤٨ . ظهر هنا الكتاب في مطابع مجلة « الوجود الأفريقي » وهو عبارة عن محادثات من خطاب الرئيس سيكوتوري . والعنوان يماثل تماماً جميع الخلق التي جمعتها الحكومة الغينية للرئيس ونشرتها مجلة الوجود الأفريقي في كوناكري .

وكان لزاماً عليكم أن تلمزوا الصمت وكان عليكم أن تطيعوا دون أن تفهموا وأن تعملوا دون أن تفكروا» (١).

وقد أهدى «ليوبولد سيدار سنغور» ديواناً من الشعر إلى حملة المدافع الرشاشة السنغاليين وهو من أشهر الكتب السياسية التي كتبها سنغور وهذا الديوان بعنوان : «القرابين المقدسة السوداء» . وقد أظهر المؤلف اشتمازه المتزايد ابتداء من القصيدة الأولى التي بعنوان «الظل» حيث يقول :

أنتم يا حملة المدافع السنغاليين .
يا أخوتي السود ذرى الأيدي الساخنة تحت برودة الموت .

من الذى يستطيع أن يتغنى بكم غير أنخيكم فى حمل السلاح .
أو أنخيكم الذى يجرى فى عروقه نفس الدم .

لن أدع الكلام للوزراء أو القواد العسكريين . لالن أدعه مطلقاً .
إن المديح الذى يجنى وراءه الاحتقار يدفنكم سراً .

إنكم لستم فقراء خاوى الوفاض ولستم بلا شرف . ولكنى سأمرق جميع إعلانات الدعاية لبيع الموز السنغالى والتي تمثل جندياً سنغالياً ضاحكاً والتي تزدان بها جميع حوائط فرنسا .

وإن ظلماً آخر يجيق خاصة بالمحاربين القدماء الذين هم ضحايا التفرقة العنصرية عند عودتهم إلى بلادهم ، وأن موضوع هذا الظلم قد طرح فى المؤتمر الأفريق الوطنى عام ١٩٥٠ فى روديسيا الشمالية وقد ركز عليه المؤتمر كموضوع هام وأساس للدعاية ، وقد كتب «كارنندا» فى كتابه «سوق تحرور زامبيا» عن قصة «الجندي المسرح» من الجيش وكيف أنه اصطدم باللوائح والتنظيمات التى تمنع دخول السود الفنادق والمطاعم المخصصة لليبيض (الأوروبيين) فقد كانت هذه القصة أكبر أثر فى إيلاسى من الناحية القومية .

ويجب علينا أن نعرض لكاتب أفريق من كتاب «فترة ما بين الحربين» والذى اتخذ من نفسه مدافعاً عن فكرة الخدمة العسكرية فى الجيش الفرنسى ، هذا الكاتب الموتسى واسمه «ديم لوبسوم» يكتب فى ثورة عارمة فيقول فى كتابه «أسرار السحرة السود» مهاجماً أعمال الكهنة الوثنيين كتوزيع بعض الحشرات على الذين يستدعون للخدمة العسكرية ليجعلهم غير لائقين للخدمة أو إعطائهم بعض السموم البطيئة المفعول ليرضوا حين يصلون إلى الثكنات العسكرية ليعودوا إلى بيوتهم دون أن يؤدوا الخدمة العسكرية ، ويقول الكاتب فى ختام حديثه بعد أن ذكر كراهية الشعب فى موسى (١) الكتاب نفسه الذى سبق ذكره فى الملاحظة رقم (٢٢) .

للخدمة العسكرية وكيف أنها كانت سبباً لهجرة الشباب الأفريقي من هذه المنطقة إلى الأماكن المجاورة وخاصة ساحل الذهب . يقول هذا الكاتب : من الأفضل أن تقاوم أعمال السخرة التي تعرض ما تقوم به فرنسا للخطر .

قانون المدنيين (قانون خاص بالوطنيين) :

قبل الحرب العالمية الثانية كان نظام الإمبراطورية الفرنسية يقضى بأن تعين أقلية من الأفريقيين تمثل سكان البلاد الأصليين في المجالس الإدارية الاستشارية في كل مستعمرة أفريقية ، وكانت القوانين والأنظمة الخاصة محددة ومعروفة باسم : قانون السكان المدنيين (الأصليين) . وكان من أبرز أحكام هذا القانون ما ينص على إنشاء نظام السخرة وكثيراً ما ذكره المثقفون الأفريقيون باسم قانون (الأشغال الشاقة) وكان هذا القانون هدفاً لتقدم اللاذع .

وقد عرفه «جوزيف كى رزبوه» في رسالته بعنوان : (اقتصاد الرق في أفريقيا السوداء) قائلاً : إنه وسيلة الاستغلال الذى لا استقرار له . ويزيد الكاتب فكرته إيضاحاً فيقول : إنها أعمال سخرة للمصالح العام ولأعمال الطرق والنقل بصفة خاصة ، فهي عقود إجبارية مع المستعمرين وضرائب عينية وزراعات إجبارية تماماً مثل ما يفعله البلجيكيون (مترسمين خطى الهولندي فإن دن بوش وما فعله في جاوا) ولكنهم يفعلون ذلك على نطاق واسع في المناطق المخصصة للسود ومشاركة جماعية للزراع في المحاصيل ، ثم يستطرد الكاتب قائلاً : إن هذا القانون يسبب كثيراً من الوفيات . ولنذكر مثلاً هذه الوفيات البشعة ما تم في مد الخط الحديدى من الكنتون إلى المحيط . فقد مات في هذا العمل ٩٠٠ شخص من ٤٥٠٠ عملوا في هذا المشروع (من يناير سنة ١٨٩٠ حتى مايو ١٨٩٢) ولو أنهم حتى يونيو سنة ١٨٩٢ كان العمال قد وصلوا فقط إلى الكيلو التاسع من هذا الطريق ، معنى ذلك أنه يمكن القول بأن كل عشرة أمتار لهذا الخط الحديدى كانت تتكلف حياة إنسان آدمى . كما أن هذا القانون الخاص بالمدنيين كان يعطى الإدارة الاستعمارية سلطات قضائية واسعة كشف عنها وفضحها الكاتب «عبد اللأى واد» في مجلة الوجود الأفريقي في العدد المخصص للطلبة السود . أما عن الحقوق السياسية فإنها كانت في الواقع مقصورة على مقاطعات السنغال الأربع والتي يتمتع سكانها بالجنسية الفرنسية ولهم حق المواطن الفرنسى ، ومع هذا فإن هذا النظام الخاص لم يخل من نواح كانت موضع نقد المثقفين الأفريقيين السنغاليين له . ومن بينهم الآن عميد السياسة الأفريقية في المقاطعات الناطقة باللغة الفرنسية وهو «لابن جوى» رئيس الجمعية التشريعية الحالية في

السعال ، فقد عالج هذه المشكلة عام ١٩٢١ في رسالته التي نال بها درجة الدكتوراه في القانون وكان عنوانها «الوضع السياسي للسنغاليين من أبناء المقاطعات التي يتمتع أهلها بالجنسية الفرنسية ويقرر «لابن جوي» بأن صفة المواطن الفرنسي التي منحت للسنغاليين بمقتضى القانون ١٦ الذي صدر في الشهر الخامس من التقويم الجمهورى الفرنسى وأصدرته الجمهورية الفرنسية الأولى في عامها الثانى والذي بمقتضاه ألغى نظام الرق . هذا القانون قد أثار مشاكل عديدة من الناحية القانونية بين نص هذا القانون والشريعة الإسلامية . وما يعيبه المؤلف متمسب على نصوص الأحكام وعلى محاكم المستعمرات الفرنسية وعلى عدم تطبيق القرار الصادر في الشهر الخامس من التقويم للجمهور (السالف الذكر) بحجة يوجه اللوم والعبء من جراء إعاقة تطبيق مبدأ المساواة والمثل والذي أقره القرار السالف الذكر . وسبق هذا الموضوع موضع اهتمام هذا الكاتب طوال حياته السياسية في المستقبل . والقانونان (للأمين جوي) الذي ظل يدافع عنها أمام البرلمان أكبر شاهد على حياسه وتمسكه . والقانون الأول منها هو قانون ٧ مايو سنة ١٩٤٦ الذي يعلن أن جميع الرعايا في الأراضي الفرنسية وفيها وراء البحار لهم صفة المواطن الفرنسي الذي يعيش في فرنسا الأم . وهذا القانون المذكور هو أساس المادة ٨٠ من دستور سنة ١٩٤٦ ويقول «إن هذا القانون مستمد من القرار الإمبراطورى الرومانى المكون للاتحاد الفرنسى . والقانون الثانى هو الذى صدر فى عام ١٩٥٠ ويقضى بأن تمتع الموظفين الأفريقيون والفرنسيون بنفس الحقوق . ولكن طبق على الموظفين الأفريقيين المتعددى الزوجات ، فقد كانوا يتمتعون بنفس المرتبات والعلاوات العائلية . ولكن هذا التطبيق الضيق أثار كثيراً من المشاكل واستدعى ذلك كثيراً من الجدل وتبادل المكاتبات .

وفي رسالة أخرى قدمت للحصول على درجة الدكتوراه في القانون عام ١٩٤٣ ، ينقد فيها السيد إرناني سانتوس «أحد زعماء حزب التوجو القومى قانون (حق اختيار السكان المحليين تطبيق القانون الفرنسى) .

ومن هذه اللحظة يرفض (سانتوس) رفضاً باتاً أن يقبل أن الحل بالتسليم في المستقبل هو أن يطبق مبدأ تعميم التشريعات الفرنسية ، كما هي في نصها على المستعمرات الفرنسية . فهو يرى أن مبدأ المثل (أى التشبه بالأوروبيين) مبدأ خاطئ وخطير في نفس الوقت ، ويرى هذا القانونى التوجي عكس ذلك إذ يقول : إن الاستعمار معناه إنشاء مجتمع جديد له نظمه وحضارته الخاصة . وأن ما يجب أن عمله هو إعداد مستقبل يتمتع فيه المستعمر والمستعمر يتقاربان يكون مصدرها التقاليد لكل منها . ويشرح هذا الرأى في ختام كتابه فيقول : إن التشريع في المستعمرات يجب أن

يتطور إلى درجة تجعل الأوروبي نفسه يضعها موضع اعتبار وتقدير في المستقبل . إن هذا حلم لم يتحقق بعد ، ولكنه من الأوفق أن تفكر فيه من الآن لأنه الحل الوحيد الذي نرجو تحقيقه . إن الاستعمار حدث اجتماعي . إنه صلة بين شعبين يكون هذا الاتصال عنيقاً في أوله ، ولكنه لا يلبث رويداً رويداً أن يصير عادياً وإذاً فيجب أن تفكر من الآن في حل بواسطته لا يستطيع أحد الطرفين امتصاص الآخر وأن يحس فيه الاثنان أنها بصدد خلق علاقات إنسانية جديدة ، ويشهد كل منها قواه لعمل حضارة على مستوى أحسن .

إن دستور عام ١٩٤٦ والذي كان ينظم الأراضي الفرنسية فيما وراء البحار والتوصيات التي اتخذت في مؤتمر برازافيل والذي رأسه الجنرال ديغول عام ١٩٤٤ ، والذي فيه نشأ الاتحاد الفرنسي . هذا الدستور قد ألغى الأشغال الشاقة والسخرة ومنح الممتلكات الفرنسية جمعيات استشارية وممثلين ونواباً عنها في البرلمان الفرنسي في فرنسا .

وقد اعتبر «محمود دبوب» مؤسس حزب الاستقلال الأفريقي فيما بعد وصاحب الآراء الماركسية ، اعتبر هذا الإصلاح إصلاحاً سلبياً . فقد كتب في مجلة الوجود الأفريقي عام ١٩٥٣ تحت عنوان : «إن الحل الوحيد هو الاستقلال التام» قال في مقالة : سيقولون طبعاً أن مرحلة الاستعمار العنيف قد تم تخفيفها منذ زمن طويل . وأن الشعوب الأوروبية (المستعمرة) قد اعترفت بذنبا حين واجهت مسؤولياتها المتزايدة وأنها تحاول أن تصلح ما سبق أن ارتكبت من أخطاء إذا كان هذا ممكناً . وأن المستعمر والمستعمر متفقان تماماً على أداة النظام الاستعماري وأنها قررا معاً أن يتعاونوا بمجهودهما على بناء مستقبل أحسن . كل هذا صحيح من الناحية النظرية ولكن لم يطرأ أي تغيير من الناحية العملية . فالكومونولث والاتحاد الفرنسي لن يغيرا ما في قرارة نفسيهما وجوهر سياستها وإنما يمكن تغيير الشكليات فقط وينتهي «محمود دبوب» من مقاله إلى النتيجة الحتمية وهي «إن الاستقلال التام ضرورة» .

وكان حكم «عبد لاي واد» يختلف تماماً عن الحكم السابق ، فقد قال : إن مذهب الاستعمار الفرنسي يعتبر تحوراً بالقياص إلى الاستعمار البلجيكي مثلاً ، وإنه يمكن اعتبار الاتحاد الفرنسي أنه نصر وأن عبء المستعمرين على عاتق المستعمرين خفيف جداً وكأنه خطوة أولى نحو الاستقلال . أما «أنبير تيفودجيه» فإنه يجعل نظم الاتحاد الفرنسي في كتابه في الفصل بعنوان «هل مات الاستعمار وإنتهى؟ فهو يعارض كذلك فكرة أن سياسة الاستعمار قد غيرت من طبيعتها بعد الحرب . فهو يسقط من حسابه أولاً الحل الذي اقترحه مؤتمر برازافيل وهو أن الهدف من الحضارة الجديدة

التي أوجدتها فرنسا بعيد أية فكرة للاستقلال الذاتي كما يباعد بين احتمال تكوين حكومات محلية مستقلة فيما بعد نتيجة لأي تطور خارج كتلة الإمبراطورية الفرنسية ، كما يشرح الكاتب في وضوح فكرة « أنه إذا كان دستور سنة ١٩٤٦ يسمح بتمثيل نواب عن مستعمرات ما وراء البحار في البرلمان الفرنسي فإنه يبين النسبة قائلاً إن النائب يمثل سبعمائة ألف في المستعمرات في حين أن زميله النائب الفرنسي ينتخب عن كل خمسين ألفاً ، ويعتمد « تيفودجيري » على كاتب أوروبي في توضيح هذا التحديد العددي للنواب والشيوخ الأفريقيين في البرلمان الفرنسي فيقول : لو أننا زدنا عدد هؤلاء المثاليين إلى العدد اللازم لأصبح الحاصلون على الجنسية الفرنسية منهم مسمكين بزمام الأحزاب السياسية في الوطن الأم (في فرنسا) ولتحكموا في الأغلبية بحيث يحولون هذه الأغلبية من ناحية إلى أخرى ، ولربما كونوا هم أنفسهم هذه الأغلبية ويكون نتيجة لذلك أن تصوت هذه الأغلبية بحيث يحولون هذه الأغلبية المكونة ممن يتزوجون بأكثر من زوجة على القانون المدني الفرنسي ولأصبحت الصورة قائمة وسوداء لأن من يصوت على القانون الجنائي الفرنسي هم أبناء أكلة اللحوم البشرية (الأفريقيين) (١) .

لقد وكل إلى السيد (لامين جوي) الذي كان عضواً في التنظيم الرئيسي للحزب الاشتراكي الفرنسي بباريس وكل إليه الدفاع عن الاتحاد الفرنسي . وفي كتاب « لامين جوي » الذي قدمه « جوي موليه » سكرتير عام الحزب الاشتراكي الفرنسي والذي ظهر قبل صدور قانون عام ٤٦ (الذي منح المستعمرات استقلالاً ذاتياً) نجد أن المؤلف « لامين جوي » لا يعتبر هذا القانون الذي صدر سنة ٤٦ نقطة نهائية . ولو أنه يؤمن بالاتحاد الفرنسي وفرنسا نفسها بلد الحريات فإنه يقترح مع ذلك عمل إصلاحات تساهم في اشتراك الأفريقيين اشتراكاً فعلياً وفعالاً في السلطة ، ويوحى بإنشاء جمعية على المستوى القومي يكون من اختصاصها التعرف على مشاكل ما وراء البحار الكبرى ، ويكون لهذه الجمعية كامل السلطة كما يكون هناك برلمان خاص يكون فيه أغلبية المنتخبين من غير أبناء الوطن الأم (فرنسا) ، بذلك تثار فيه مشاكل أقل من التاجيتين السياسية والعاطفية مشاكل أقل من التاجيتين السياسية والعاطفية ، فيمكن تعديل لائحة الجمعية الحالية (جمعية الاتحاد الفرنسي) بحيث تساهم هذا الاتجاه المقترح .

(١) مأخوذ من كتاب « التحليل » للكاتب هنري كلان . ذكره روسونادير في كتابه « المستعمرون » أمام الاتحاد

الفرنسي .

وفى ختام حديثه ينحى جانباً الاستقلال الذى منحه هولندا لأندونيسيا وبريطانيا لساحل الذهب ، ولكنه يؤكد فى إصرار بقوله : إننا لا نطالب فرنسا بأكثر من تطبيق المساواة فى المعاملة القانونية تطبيقاً دقيقاً . (متجاهلاً القانون الأساسى للمستعمرات ولكن اقتراحه هذا يقترب كثيراً من اقتراح رابطة مجلس الشيوخ الذى أنشئ طبقاً لدمستور سنة ١٩٥٨) .

وعلى نمط آخر نجد أن «دودو تيام» وزير خارجية السنغال الحالى يجتهد فى تحليل نتائج الإصلاح التى تجمعت عن قانون سنة ١٩٤٦ كما يجتهد فى تحديد وتعريف هذه النتائج من منح الجنسية الفرنسية لأهالى الممتلكات الفرنسية فيها وراء البحار .

فيما نجد «لامين جوى» يعتبر تطبيق الجنسية الفرنسية خطوة كبرى للتقدم وللسير إلى أمام نحو معاملة المثل نجد أنه على العكس عند «دودو تيام» إن الصعوبات التى نشأت عند التطبيق كانت كثيرة فأثارته وجعلته يصل إلى نتيجة ملموسة ، وهى أن معاملة المثل هذه غير عملية . وليس معنى ذلك أن هذا الكاتب الأخير معاد للاتحاد الفرنسى بل العكس فإنه يرى فى الاستعمار بالرغم من إخطائه التى يرتكبها وانحرافات وسيلة لتبادل قيم الحضارة ، فهو يرفض وصف قانون الإصلاح بأنه قانون انتحالى بسيط بل يقرر أن هذا الإصلاح يجب أن يعتمدى المفهوم الضيق برغم أن الفوارق والحدود بين القانون العام والقانون الخاص لا تزال مائعة غير واضحة . وأن هذه الصعوبات الناجمة عن مشكلة بذاتها (خاصة) توضح للكاتب حقيقة عامة وهى خطورة نقل قانون عمل لمجتمع معين إلى مجتمع آخر مخالف له تماماً . ويسرد لذلك عدة حالات للتناقض حيث تصطدم بها التقاليد الفرنسية مع التقاليد الأفريقية ، ومع ذلك كان الحكم فيها فى صالح القانون الفرنسى ووفقاً للنظرية القائلة «النظام العام للمستعمرات» .

وتتلخص رسالة «دودو تيام» التى نال بها الدكتوراه فى أنها دفاع ومرافعة ضد فكرة المعاملة بالمثل . لذلك فهو يهين نفسه لأن مقدمة دستور سنة ١٩٤٦ الذى أنشأ الاتحاد الفرنسى تنص صراحة على أن هذا الاتحاد يكون من أمم وشعوب تتضافر جهودها جميعاً ومواردها لتنمية حضارة كل منها ، ويصر المؤلف على إبراز كلمة «الأمم والشعوب» فى صيغة الجمع ، فقد أثار النقاش حوله جدل عنيف فى البرلمان الفرنسى . ويختتم المؤلف حديثه هذا قائلاً : وبعد كل هذه المناقشات أكد الدستور التمدد الثقافى الذى هو أساس تكوين الاتحاد الفرنسى . وكان وجود الحضارات المختلفة فى أراضي ما وراء البحار أصبحت حدثاً قضائياً . وأن احترام الحضارات هذه قد ارتقى إلى

مصاف لبدا الدستورى البعد عن تناول المشرع . واليوم يدخل واضعو الدساتير فى اعتبارهم أنه من المستحيل نقل الجنسية الفرنسية إلى ما وراء البحار دون إجراء تغييرات ضرورية .

بلقان جديد (١) :

لقد ارتبط القانون الأساسى للمستعمرات الأفريقية الصادر فى سنة ١٩٤٦ باسم « جاستون ديفير » الذى كان وزيراً فى وزارة « جى مولى » وكان وزير المستعمرات الفرنسية فى وراء البحار عام ١٩٥٦ . فهو الذى أنشأ نظام الاستقلال الذاتى (استقلال داخل نسبي) فى كل دولة من دول أفريقيا الفرنسية . وجعل فيها حكومة محلية يرأسها الحاكم الفرنسى وأعضاؤها وزراء أفريقيون وهذه الهيئة تسمى مجلس الحاكم . كما أنه أعطى الجمعيات الدستورية الاستشارية المحلية سلطات تشريعية .

ويعارض « ديفودجره » القانون الأساسى هذا قائلاً : إنه عند تطبيقه لأول مرة قد ثبت مبدأ من مبادئ الاستعمار الفرنسى . ولو أنه أراد ألا يقلل من شأن الذين (واضعى هذا القانون) اعتقدوا أنهم بوصفه ينجون فرنسا متاعب أفريقية جديدة منها الاندماج والنسب بالأوروبيين حين يتحدثون عن « المحافظة على تضايف العناصر التى تتكون منها الجمهورية الفرنسية » غير ناظرين إلى السيطرة السياسية والاقتصادية . فى الواقع أن السلطة المركزية (الحكومة الفرنسية) هى التى تدير الإدارات التى تتحكم فى مصر الأراضى الأفريقية . ذلك لأن الدفاع الوطنى والعلاقات الخارجية والتجارة والتخطيط والاعتبارات المالية والاتصالات التليفونية والتلغرافية والموائى والجوارك والسكك الحديدية والطرق الداخلى والأمن والشرطة والمحاكم والتعليم العالى وغيرها كل ذلك فى أيدي الحكومة الفرنسية ووقف عليها .

وعلى ذلك كان تحرر غانا شديد الوطأة على نظام الإصلاح للاتحاد الفرنسى بين ذلك « ديفورجيه » ويوضحه قائلاً : « فى اللحظة التى يصبح فيها ساحل الذهب دولة على قدم المساواة مع بلجيكا وفرنسا وإنجلترا فهل سيفهم الفرنسى أن هذا القانون الأساسى للاتحاد الفرنسى يعتبر نقطة تحلف فحسب ، أو أنه مناقض لسير عجلة التاريخ التى تمر بالعالم اليوم ؟ ! فقد عرفت غانا من قبل الوصول إلى الاستقلال التام نظام الاستقلال الذاتى الداخلى ولكن دكتورونكروما

(١) نعتقد أن « أندريه بالانشر » إحصائى الشؤون الأفريقية فى جريدة « الموند » هو الذى أطلق هذا التعبير

الجديد الذى انتشر انتشاراً واسعاً .

وشعبه يعرفون جيداً أن هذه المرحلة سوف تنتهى تماماً يوم ١٩٥٧/٣/٦ .

ويرى سيكوتورى أن الخطأ الأكبر في هذا القانون أنه جعل من أفريقيا «بلقانا أخرى» ، فهذا النظام الذى وضعه الوزير السيد «ديفير» قد جهل البيان الفيدرالى القائم في أفريقيا الغربية الفرنسية وكذا القائم في أفريقيا الاستوائية الفرنسية وأنه لم يمنح الاستقلال الذاتى فى الداخل إلا فى إطار كل دولة على حدة . ولكن الزعيم والقائد الغينى يرى أيضاً في هذا القانون «أنه خطوة نحو الاستقلال التام» ، ذلك لأنه يسمح للبلاد في أن تتعاون في حرية مع فرنسا ولأنها ستناقش المشاكل المشتركة بينها على قدم المساواة .

وتاريخ هذا النص هو يناير ١٩٥٨ ويعتبر هذا التقرير هو التقرير المعنوى والسياسى لسيكوتورى باعتباره السكرتير العام لمؤتمر الحزب الديمقراطى الغينى ، ونحن نعلم أن الزعيم الغينى كان لا يريد الانفصال عن فرنسا .

لقد أنشأ دستور سنة ١٩٥٨ رابطة الدول الفرنسية ، ولقد ازداد به مفهوم الاستقلال الذاتى زيادة كبيرة بينما أصبحت الشئون المشتركة بين فرنسا والدول الأفريقية الجديدة من اختصاص المجلس التنفيذى الذى يجمع رؤساء الحكومات الأفريقية ، ويرأسه رئيس الجمهورية الفرنسية ومجلس الشيوخ المكون من رابطة الاتحاد الفرنسى ، وكانت اختصاصات هذه المجالس غامضة ولكن هذا الدستور الجديد قد أعطى لكل دولة من هذه الدول حق الانفصال وهو الطريق التى اجتازتها غينيا في الاستفتاء الذى تم في سبتمبر سنة ١٩٥٨ .

وللمرة الثانية يوجه سيكوتورى اللوم إلى المشرع الفرنسى بحجة أنه يريد أن يجعل من أفريقيا بلقانا جديداً ، ويؤكد ذلك أن الاعتقاد كان سبباً رئيسياً في أن تقول غينيا «لا» في الاستفتاء المذكور .

ولعل النص الأكثر وضوحاً في هذا الصدد هو خطاب سيكوتورى الذى أذاعته الإذاعة يوم ٢٨ أغسطس أى قبل الاستفتاء بشهر واحد . ولقد تركز على نقطتين كبيرتين هما : جعل أفريقيا بلقانا آخر ، الوحدة الأفريقية . فقد قال سيكوتورى «علينا أن نذكر أن المجلس الأعلى في أفريقيا الغربية الفرنسية قد صوت ثلاث مرات ضد جعل أفريقيا بلقانا آخر . وأن حرب التجمع الأفريقى في مؤتمره بمدينة باماكو وما اتخذ من قرارات افتتحت عليها جمعيات برلانية ليدل على إرادة واحدة في المحافظة على الاتحادات الفيدرالية الأفريقية ، وأن هذا الدستور الجديد لم يراع أنه يودى إلى تقسيم تعسقى ويعوق إمكانيات تقدم أفريقيا اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً . وإنى أؤكد إذاً أنه

في حالة رفض الحكومة الفرنسية لآمال أفريقيا المشروعة فإن مشروع فرنسا الدستوري هذا سوف يراعى المقترحات المشروعة لأفريقيا وأن شعب غينيا سيحصل على استقلاله التام في ٢٨ سبتمبر المقبل وسيطالب بمباحثات مع فرنسا على أساس عقد اتفاقية مشتركة بينها .

وفي حالة رفض فرنسا مستقر غينيا دون أن تضيع وقتها طريقاً آخر لمصيرها على أن يكون هذا الطريق الجديد يتيح لها أكثر وأكثر بأن تستمر في كفاحها بنجاح في سبيل تحرر وحدة أفريقيا .
وفي ٤ أغسطس سنة ١٩٦٠ عدل دستور رابطة الشعوب الفرنسية ليمسح لدول أفريقية مستقلة بالبقاء في قلب هذه الرابطة وقد سجل الكاتب الصحفي « فيليب ذكرين » في صحيفة الموند « عدد ١٢ أبريل ١٩٦١) ما يأتي : إن هذا التعديل يعطى الحق بتأجيل الطلب الذي قدمته غينيا لمدة ٢١ شهراً عند نظر الاستفتاء في سبتمبر سنة ١٩٥٨ .

وفي خلال هذا الوقت ما الذي حدث إذاً ؟ لقد تكونت دولة فيدرالية تسمى « مالى » وتشمل السودان الفرنسي والسنغال . وفي خريف سنة ١٩٥٩ أوعز نائب رئيس الدولة الفيدرالية للمالى إلى جريدة الموند برغبة في تحويل الشعوب الفرنسية إلى اتحاد فيدرالى يضم قوميات مختلفة ويجمع بين فرنسا وبعض الدول الأفريقية المستقلة . وفي عام ١٩٦٠ اختارت دول الوفاق الأربع : ساحل العاج - النيجر - فولتا العليا - داهومي - الاستقلال وانفصلت عن رابطة الدول الفرنسية ولكنها أبتت على تعاونها مع فرنسا في شكل اتفاقيات .

إن هذا التعديل يعطى الحق في الطلب الذي قدمته غينيا وقت الاستفتاء الدستوري في سبتمبر ١٩٤٨ ولكن بعد تأخير ٢١ شهراً .

وفي يوليو سنة ١٩٥٩ أثناء انعقاد المؤتمر التأسيسي لحزب الاتحاد الأفريقى كان السيد « سنغور » يجتهد في إقناع فرنسا والمؤتمرين بالرهان في أن مصلحة فرنسا لا يمكن أن تكون يجعل أفريقيا بلقائماً جديداً ، فيقول في كتابه « الأمة وطريق الاشتراكية الأفريقية » ما يأتي : إن إعادة تكوين أفريقيا الغربية الفرنسية الفيدرالية على أسس جديدة سيكون في صالح الأفريقيين من الناحية السياسية ، وهذا يشهد إلى حقيقة مفهومنا لعنى الأمة . كما أنه من الواضح أن هذا التكوين الجديد سيكون في صالح فرنسا من الناحية السياسية أيضاً . وهذا واضح لمن يتابع امتداد الحرب الباردة إلى أفريقيا السوداء . فالدول الناطقة باللغة الفرنسية تخاطر حين تنحدر الواحدة إثر الأخرى إلى جانب الكومنولث البريطانى أو إلى الديمقراطيات الشعبية . فما عسى أن تفعله داهومي بين نيجيريا وغانا ؟ وكيف يستطيع سكان النيجر الفقراء الذين يرزحون تحت وطأة حكم إقطاعى أن يقاوموا جذب

دولة نيجيريا ذات الثروة وديمقراطيتها وكثرة عدد سكانها البالغ ٣٥ مليون نسمة . إننا نحشى بقلقاً جديداً في أفريقيا ، فإن ذلك سيعد مؤتمراً جديداً (كمؤتمر بان دونج) لهذه الرابطة . فدول أفريقيا الغربية الفرنسية (الغان) ستخسر حتماً في الميدان الاقتصادي في حالة خلق بلقان جديد في أفريقيا . كما ستخسر فرنسا هي الأخرى ، وقد قلت ذلك في مناسبات أخرى كثيرة . كما أثبت الخبراء حياً أننا إذا لم نعد تكوين السوق المشتركة بين دول أفريقيا الغربية الفرنسية فإن فرنسا ستعتمد إلى تخصيص ٧ مليارات فرنك سنوياً زيادة على اعتمادات المعونة والتعاون من ميزانية رابطة الشعوب الفرنسية ، وذلك لسد عجز ميزانية الدول الفقيرة التي في هذه الرابطة .

المشوى الأخير للإدارة غير المباشرة :

كان لإلغاء نظام رؤساء العشائر التقليدي الذين كانت تحتفظ بهم وتدفع مكافآتهم الإدارة الاستعمارية ، كان هذا الإلغاء شرطاً من الشروط الضرورية لتحرر البلاد سياسياً . هكذا بدأ هذا الإلغاء لسيكوتوري . فقد كان هذا الشرط بالنسبة لهذا الزعيم مقدمة لا غنى عنها للاستقلال حتى أنه وضع هذا العنوان لكتاب من كتبه نشرته مجلة الوجود الأفريقي ، ويسرد في هذا الكتاب كيف تم هذا الإلغاء .

وفي الواقع فإن موقف سيكوتوري من رؤساء العشائر هو نفس موقف معظم الأحزاب الوطنية الأفريقية التي تعتبرهم بوجه عام دعاة رجعية ، فقد استخدم كثير منهم للتأثير على الناخبين الأفريقيين ليصوتوا للحفاظ على سيطرة المستعمر .

وفي بلدان ساحل أفريقيا الغربي كان لرؤساء العشائر سلطان ونفوذ واسع جداً خاصة داخل الأراضي ، أى في وسط البلاد ، حيث يوجد الفلاحون في حين أنه في المدن وخاصة مدن الساحل الكبرى فإن اختلاط السكان (من مولدين) وكذا سيطرة التقابات ودرجة تطور السكان وتقدمهم قللت من سيطرة رؤساء العشائر وسلطانهم . وكان الأمر متشابهاً في غينيا بالنسبة لرؤساء قبائل «البيبل» في جبال «فوتا جالون» كما كان الأمر مماثلاً في سيراليون حيث قام رؤساء الجماعات الداخلية (الأراضي الداخلية) في وجه سلالة العبيد في مستعمرة «قربتون» وفي غانا حيث انحاز ملك شانتي التقليدي ضد الجبهة المعارضة لتكروما . وفي توجود حيث لم تستطع لجنة توجود تحت زعامة السيد سيلفانوس أولمبيو التأثير على قبائل باساري أو قبائل كايويه . وفي نيجيريا بوجه خاص

حيث لعب كبار الأمراء من قبائل البيلى فى إقليم كانوا وإقليم كاتينا وإقليم سوكونتو دوراً هاماً فى الحياة السياسية هذه البلاد .

وفى اتحاد جنوب أفريقيا ارتكزت الإدارة على رؤساء العشائر واعتمدت عليهم فى الجهات المختصة للقبائل وقد جعلت « فيرفورد » من التنافس بين القبائل حكومات سوداء مستقلة استقلالاً ذاتياً .

وكثيراً ما تعارضت سيطرة رؤساء العشائر على المحافظة على النظام القبلى وكثيراً ما أثبتت الأحزاب الوطنية الأفريقية وجود النظام القبلى بوجود رؤساء العشائر . وكان من الواضح على هذا الاعتبار أن يدافع زعماء العشائر عن الاستقلال المحلى ، أى استقلال كل واحد منهم فى منطقته ، وعلى هذا فإن محافظتهم التقليدية كثيراً ما دفعتهم للدفاع عن النظام الفيدرالى . وهكذا كانت منطقة نيجيريا آخر منطقة طالبت بالاستقلال وعليه كان « كاباتادى بوجاندا » من أشد أنصار جعل أوغندا دولة فيدرالية .

وأخذت هذه الظاهرة فى الاتساع والامتداد خاصة فى الأراضى البريطانية بسبب مبدأ الاستمرار البريطانى القائم على الحكم غير المباشر والإدارة غير المباشرة الذى يتلخص فى وضع أكبر سلطة محلية ممكنة فى أيدي الحكام المحليين التقليديين . وابتكر هذا النوع من الحكم لورد ليوجارد فى نيجيريا . وفى أفريقيا الفرنسية نجد أن مدارس أبناء الزعماء المحليين التى أنشأها « فيدهارب » قد نهجت نفس الأسلوب ، غير أنها لم تدم إلا وقتاً محدوداً . ففى الحقيقة لم يرقم زعماء « فوتاجالون » ولا الملوك الكبار (موراتابا) فى قبائل موسى بأى دور هام فى أفريقيا الفرنسية مثل الدور الذى قام به أمراء نيجيريا أو فى كاباتابوجندا .

فلم يكن عجباً فى كل هذه الحالات أن نجد القوميين فى أفريقيا الناطقة بالإنجليزية يدينون فى حكمهم بنظام الحكم غير المباشر ونظام رؤساء العشائر والنظام القبلى والنظام الفيدرالى . فقد كشف جورج بادموور عن محازى وفضائع نظام رؤساء العشائر والنظام القبلى فى أسلوب عنيف فى الباب المخصص لنيجيريا فى كتابه « وحدة البلاد الأفريقية » وهذا الكاتب هو المستشار السياسى للشئون الأفريقية للرئيس نيكروما وصاحب نظرية « وحدة البلاد الأفريقية » .

فهذا الكاتب الجمايكي يدافع بصفة عامة عن نظريات الدكتور « أزيكويه » فى المركزية والوحدوية ضد آراء ونظريات « أباقيمى افولفو » رئيس الوزراء السابق للمنطقة الغربية وصاحب نظرية « اتحاد نيجيريا الفيدرالية » وذلك فى كتابه بعنوان « الطريق إلى حرية نيجيريا » إن موقف كل

من «أزيكويه» وأفولقوه ليتضح بكل معانيه إذا عرفنا أن رؤساء العشائر في فيله بوروبا في المنطقة الغربية هم ورثة المالك التاريخية السماء «اييه» و «أويو» وأن لهم كياناً متيناً في حين أن هذا الكيان غير موجود عملياً في بلاد «ايو» وهي القبيلة الرئيسية في المنطقة الشرقية والتي ينتمي إليها الدكتور ازيكويه، كما أن السيد «أفولقوه» ينحدر من إحدى عائلات رؤساء العشائر. ويكتب «بادمور» في كتابه وحدة البلاد الأفريقية بأن السيد افولقو من أنصار هدم السلطان القبلي «يقر بادمور هذا ويذكرنا بحملة قالها الزعيم النيجيري : إن نيجيريا ليست أمة بذاتها ولكنها عضو تعبير جغرافي» وإذا فليس هناك نيجيريون (١) :

ويكتب «نتيونج» ي. أكيان» من ناحيته بعد أن تحدث عن المظاهر الإيجابية للنظام الذي ابتكره لورد لوجارد نراه يصدر حكمه عنه في كتابه بعنوان : «المثوى الأخير لنظام الحكم غير المباشر» فيقول : أرى أن هذا النظام قد أدى عملياً إلى نوع من التفرقة العنصرية في الأراضي المستعمرة . حيث يعتبر الأوروبيون دائماً السكان المحليين وكأنهم ينتمون إلى جنس أحط منهم بكثير وأنهم لا يصلحون إلا لقطع الأخشاب ونزح الماء (٢) .

وفي غانا يعبر الكاتب «ح . جورسون أماموه» السفير الحالي لغانا في بودابست في كتابه التاريخي عن السنوات السابقة على الاستقلال في بلاده عن عدم ثقته في القومية الأفريقية عن طريق نظام

(١) في كتاب الوحدة الأفريقية : إن تطور نيجيريا منذ الاستقلال بلغت للنظر حقاً . فقد اتحد الحزب الوطني النيجيري مع شمال الكاميرون في مؤتمر شعوب الشمال الذي كوته الطبقة الأرستقراطية من شعب فولاني في الشمال ضد طبقة الفلاحين والعمال في شمال نيجيريا . وهذا الاتحاد بين الحزب التقدمي والحزب المحافظ قد أثار الدهشة . ونرى أن السيد افولقو وضع في السجن تهمة اختلاس الأموال العامة وقد كان زعيم المعارضة في البرلمان الفيدرالي . وهو زعيم حزب العمال والفلاحين في غرب نيجيريا . وأن إزيكويه هو زعيم الحزب الوطني للاتحاد مع شمال الكاميرون .

(٢) أن هذا المؤلف «أكيان» من منطلق شرق نيجيريا التي كانت أول مستعمرة إنجليزية في أفريقيا أجرت فيها تجربة الإدارة المحلية الديمقراطية لتحل محل نظام حكم الإدارة المحلية المعادية أو نظام الحكم غير المباشر . والهدف من كتابه هو دراسة هذا الإصلاح (ص ١٣٢) .

يرجع إلى كتاب نيكروما بخصوص هذا الدستور . ومن الأفضل أن تقارن هذا القانون بما اتخذته سيكوتوري لوضع حد لسياسة المناطق . وتم الانتخابات في غينيا بطريقة الاقتراع بقائمة على المستوى القومي أي أن كل حزب يرشح في بعض الدوائر فقط وأن يقدم عدداً من الأسماء يساوي عدد الكراسي النيابية التي يجب أن يشغلها بند ٤ من الدستور .

العشائر ونظام الإدارة غير المباشر ، وهو يعدد أسباب الاضطرابات التي حدثت سنة ١٩٤٨ في أكرام فيقول ؛ كانت جميع الوظائف الهامة في الحكومة يشغلها الموظفون الإنجليز والذين كانوا يستندون على رؤساء العشائر ، فكانت البلاد يحكمها هؤلاء الزعماء حتى أنه قبل هذا الوقت فإن رؤساء العشائر عقدوا اتفاقاً مع الإنجليز على ختم آمال الشعب السياسية : كما يقول أمامو أيضا في وضع آخر من هذا الكتاب نفسه : لقد كان الإنجليز يحكمون ساحل الذهب بواسطة رؤساء العشائر ، وبهذا النظام غير المباشر فقد رؤساء العشائر ، مترلهم في نفس غالبية الشعب .

ونجد أن الزعيم الروديسي الوطني «كينيث كاونداه» يتفق مع أمامو في عدم نفعه تجاه السلطات التقليدية فيقول في كتابه «سنحرر زامبيا» : إنني أؤرب أن أكتب في يوم من الأيام كتاباً أسنتق معلوماتي فيه من ملفات المؤتمر الأفريقي الوطني القديمة لكي أروي قصة مناورات الإدارة المحلية في الإقليم في استخدام الرؤساء ورؤساء العشائر في سحقنا . هذه القصة معجزة حقاً : ثم نراه يبرر معارضته لمشروع الدستور الذي يلزم كل مرشح للانتخابات بأن يحوز على موافقة ثلثي رؤساء العشائر في دائرته الانتخابية ، ولهذا يقول : إننا نعلم جميعاً أن رؤساء العشائر طبقة في أبدى الإداريين الأجانب .

وفي غانا كانت معظم الأحزاب المعارضة لحزب نيكروما تستند على أساس السلطة المحلية مثل حركة التحرير الوطني التي كان يؤيدها ملك أشانتي «أشانتين» ومؤتمر شعوب الشمال ومؤتمر توجولاند ، واضطرت هذه الأحزاب فيما بعد - أي في سنة ١٩٥٧ - أن تندمج مع حزب الاتحاد بمقتضى نص دستوري يمنع وجود منظمات أو هيئات لها طابع ديني أو قبائلي . ولطالما طالب حزب الاتحاد بدستور فيدرالي ولكن دون أن ينجح في مطلبه (١) .

ليس من المستغرب أن نجد دفاعاً عن نظام الإدارة غير المباشر في شخص السيد أحمد وبيبلوه رئيس وزراء شمال نيجيريا . فالسيد أحمد وبيبلوه هذا واسمه سارداما (وهو لقب الأنبل النلاء) من إقليم سوكونو . فهو ينحدر من سلالة المصلح المسلم الكبير والقانع البيلي «عثمان دان فوديو» أول من

(١) يحلل الزعيم الغيني المعارض في كتابه : «مركز رؤساء العشائر في طريقة الحكم الحديثة في أشانتي سبب الهبوط للنفوذ الشرعي الذي سببه نظام الحكم غير المباشر لرؤساء العشائر أن شعب أشانتي يعتبر نفسه أمة واحدة بسبب ولائه للعرش الذهبي رمز الملكية الأشانتي المقدس . ويمتدح الكاتب أعمال الملك الخاصة وأنه رئيس مجلس الفيدرالي المكون من رؤساء العشائر . وقد أعادت إنجلترا تكوين هذه اللجنة عام ١٩٣٥ . لقد اختار هذا الكاتب المنفى .

أعطى إشارة الثورة ضد ملوك الهوسا في القرن السابع عشر ، والذي كان من نتائج هذه الثورة أن استولى شعب فولاني على السلطة وأسروا الإمارات التي لا تزال باقية إلى الآن . وإذا فهو أحد ممثلي هذه الإستراتيجية التي أوحى إلى «لورد لوجارد» بفكرة الحكم غير المباشر . كتب السيد أحمد وييلو في كتاب تاريخ حياته بعنوان : «حياتي» يقول : لقد لمس لورد لوجارد ذكاء أمراء فولاني وحكمتهم كما خبر ذكاء موظفيهم في الإدارة فأوحى إليه هذا الذكاء بفكرة الحكم غير المباشر أو الإدارة المحلية والتي اختصها بعنايته والتي سارت سيراً حسناً منذ ذلك الوقت .

والصعوبة الوحيدة (العقبة الوحيدة) من وجهة نظره هي أن نظام حكم أمراء فولاني لا يستطيع تغطية البلاد كلها . وقد حاول الإنجليز تطبيق نظام مماثل لنظام فولاني في مناطق الوثيين ولكن هذا النظام باء بالفشل الذريع .

وليس هناك من شك في أن انفصال «كاتنجا» قد أمد المثقفين الأفريقيين الذين طرحوا جانباً النظام الفيدرالي . أمدهم بطريقة مثلى وساحرة للسير بالأمور كما أعانهم على تعريف القوى الرجعية التي تعارض التحرر الأفريقي تعريفاً صحيحاً . فكانت المساندة التي لقبها «نشومي» مثلاً ناطقاً لوسائل الاستثمار التي استخدمها لإثارة الانقسامات .

ذلك ما يشرحه جيداً «نيكروما» في كتابه (أفريقيا يجب أن تتحد) فيقول : ربما يقدم لنا ألكوننو خير مثل للوسيلة التي تستخدم وتستغل لبذر الخلافات القبلية وكذا الانتهازية السياسية وذلك لتفتت أراض متحدة ولشر الانقسام بينها . وأن الهدف من توجيه الانتهازيين المحليين من بعيد أمثال : «موزنشومي» هو الاحتفاظ بالسيطرة الاقتصادية من جانب وإيقاف التصميم الأفريقي على تحقيق وحدة القارة في جو مستقل لا تتوقه قيود أو عوائق .

لقد ثار الوطنيون الأفريقيون لنفس الفكرة ولهذا المفهوم (الإدارة الاستعمارية) فوسيلة المستعمر هي دائماً ضرب كل مجموعة بشرية بالأخرى وكذا خلق منازعات ومخالفات بين شعب وآخر . وقد اهتم المؤلف الكنفولي «مايكا كالاندا» في كتابه (بالوبا ولولودا تبحتان عن توازن جديد) اهتماماً بأن يكشف كيف كانت الإدارة البلجيكية في إقليم كازاي تشجع الفتنة والشقاق بين هاتين القبليتين وكيف استمر الشقاق بينهما وبلغ ذروته في عام ١٩٥٩ ، ثم يستطرد الكاتب في عرضه لأعمال المديرين البلجيكين لتعميق الخلاف بينهما برغم ما بين القبليتين من أواصر القرى (إذ أن قبيلة لولودا ليست في الواقع إلا فرعاً من قبيلة بالوبا) .

وأخيراً ترى الكاتب الجزائري (عمار أوزيخان) يقوم في وجه الوضع الفرنسي في الجزائر الذي يتلخص في أن الفرنسيين يجعلون مجموعات الشعب الجزائري تعارض بعضها البعض ، ويفضح دسائس الفرنسيين المستعمرين مؤرخين كانوا أو رجال قضاء الذين ينكرون وحدة الشعب الجزائري ويدونون على الورق أن العرب يخالفون القبليين أو سكان مزاب .

أنصار الاتحاد الفيدرالي :

كان الدكتور «أفولوفو» يؤيد الدفاع عن نظام الاتحاد الفيدرالي وكان هذا الدفاع صد تيار الأفكار التي يؤمن بها عامة الوطنيين الأفريقيين . وكان هذا الدفاع يرتكز قبل كل شيء على الخوف من رؤية مجموعة من المناطق في نيجيريا تسطر على المناطق الأخرى في داخل الدولة الموحدة مثل المنطقة الشمالية التي تشمل غالبية السكان ، فعددهم فيها أكثر من المنطقتين الشرقية والغربية . ففي أثناء المؤتمر الذي عقد عام ١٩٥٨ تبنى الدكتور أفولوفو بنصر ساحق لحزب مؤتمر شعوب الشمال (الحزب الحاكم في الشمال) في الانتخابات الفيدرالية التي كانت ستجرى من أجل الاستقلال في عام ١٩٦٠ (وهوما حدث فعلاً فيما بعد) . فإن المؤلف قد لاحظ أن مقاعد الشماليين تبلغ ١٧٤ مقعداً من مجموع المقاعد كلها في البرلمان البالغ مجموعها ٣١٢ مقعداً ، فيكفي أن ينضم إلى الشماليين بعض نواب الجنوب الذين يدورون في فلك الشمال ليتاح للحزب الاتحاد النيجيري الاشراف على الحكومة الفيدرالية . ولتجنب مثل هذه الاخطار يقترح أفولوفو تقسيماً جديداً لنيجيريا تشمل عدداً أكبر من المناطق بحيث تطابق المجموعات البشرية في البلاد بطريقة أكثر واقعية . ويضيف الكاتب في تأكيده أن كثرة الشعوب والأحباش وتنوعها في نيجيريا هو خير دفاع عندها ضد الديكتاتورية ، وقد أضاف المؤلف إلى هذه الأسباب العامة حجة أخرى إنسانية هي : أن الزعماء الحاليين للحزب الاتحادي النيجيري مقتنعون بالنظام الفيدرالي اقتناعاً يقرب من القداسة فهم يستوحون منه كل سند رئيسي .

وفي الوقت نفسه كان معظم الزعماء السياسيين في نيجيريا ومنهم أزيكويه متفقين إلى حد ما على ضرورة إنشاء مناطق جديدة ، كما أن فكرة اتحاد إجراءات رسمية في هذا الشأن وردت من قبل ضمن توصيات المؤتمر الدستوري عام ١٩٥٨ . ومع ذلك فإن وجهات النظر بين الأعضاء تختلف تماماً بشأن الوسائل العملية لإعادة بناء الدولة بطريقة ينجم عنها إضرار بمصالح الأحزاب الثلاثة الكبرى التي يواجه بعضها البعض ، وهي : الحزب الوطني النيجيري للاتحاد مع شمال الكاميرون

والذى يسيطر على شرق البلاد . والحزب الاتحادي النيجيرى الذى يسيطر على الشمال وحزب العمال والفلاحين فى غرب نيجيريا وكان يتمتع بالأغلبية فى غرب البلاد .
إن عدم ثقة واطمئنان «أفولوفو» من جانب زعماء العشائر فى المنطقة الغربية كان يختلف اختلافاً طفيفاً عن عدم ثقته بأمر الشمال . فهو يقرر فى كتاب حياة الرئيس أفولوفو . ملبأى : حين توليت الحكم فى عام ١٩٥٢ كرئيس للوزارة فى المنطقة الغربية كان على أن أدخل فى اعتبارى أمرين هما : الأمراء المحليون ورؤساء العشائر الذين تنملكهم الغيرة وتشند بهم الحساسية فيما يتعلق بحقوقهم ، وما كان لهم من مميزات وأمتيازات تقليدية ، وبالرغم من الاضطرابات التى حدثت هنا وهناك ضد رئيس عشيرة معين أو ضد ملك محلى معين فإن الشعب مازال يحترم رؤساء العشائر فى حين أن الحقوق والامتيازات التى كان رؤساء العشائر ولأمرء يتمتعون بها كانت ضد الديمقراطية وضد آمال الشعب . وكان هذا الأمر هو المشكلة التى يجب أن أجد حلالها ، فقد كنت أجتهد فى أن أكبح جماح نفوذهم وعلى أيضاً أن أتخذ فى أسرع وقت ممكن جميع الإجراءات التى تقلل من هذه الحقوق الممنوحة لهم ، وأن ألغى امتيازاتهم التى كنت أرى أنها باهظة جداً . كما لزاماً على أن أفعل كل ذلك بطريقة تجعلنى أجتاوب فى نفس الوقت مع رغبات الطوائف الأخرى مع ضمان الطمأنينة لرؤساء العشائر والملوك المحليين حتى يقوموا بمهام وظائفهم .

عنف أو لا عنف :

كانت حركات التحرر فى الكومنولث وفى الإمبراطورية الفرنسية مطبوعة بطابعين مختلفين ويكفى للدلالة على ذلك المناقشة التى تارت فى مؤتمر الشعوب الأفريقية فى أكرا عام ١٩٥٨ بين أنصار عدم استعمال العنف وكلهم من الناطقين باللغة الإنجليزية ومشبعين بمثل ما تشبع به «غاندى» . وبين أنصار استعمال العنف الذين يتمون إلى الشعوب (المستعمرات الفرنسية) منهم «فرازر فانون» مندوب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وفيلكس موميه مندوب اتحاد شعوب الكاميرون . ويعرض كوامى نيكروما لهذه الناحية فى كتابه الذى يمكئ فيه تاريخ حياته وكيف أنه يعتقد آراء غاندى ، يقول فى كتابه : «إنى كنت أخصص الكثير من الجهود والوقت لدراسة الثوار والثورة والوسائل التى اتبناها هؤلاء الثوار . ومن بين من استحوذ على اهتمامى هم : هانيبال - كرومول -

(١) كانت حكومة المنطقة الشمالية تريد التأجيل والمدنة حتى يمكنها إعداد الموظفين ولم يكن السيد أحمد ويللو وزملاؤه يتحدثون عن جعل القيادات أفريقية ، بل كانوا يتحدثون عن جعل الإدارة شمالية .

وفي كينيا كان أحد رفاق كينيتا ويدعى « مبيو كاواننج » يرد على الاتهامات التي وجهها الأوروبيون إلى ثورة ماو ماو ، وهي أهم ثورة مسلحة قام بها الأفريقيون بعد الحرب الكبرى . فهو يرد على هذه الاتهامات في كتابه « شعب كينيا يتحدث مع نفسه » فيقول : إن الهدف من الحديث عن فضائح الماو ماو من جانب الأوروبيين إنما هو تحويل نظر الرأي العام عن عدالة مطلب الأفريقيين بتصفية الاستعمار في القارة ، وبالتالي كسب الرأي العام لقضية الاستعمار بوصفهم ممثلين للحضارة . ليس يعينني في هذا الكتاب أن أتحدث عن الفضائح التي ارتكبتها الماو ماو لأن كل عمل فظيع ارتكب من جانبهم إنما كان ردًا على ما يقرب من عشرين عملاً فظيماً ارتكبه الأوروبيون المستعمرون وجيشهم والشرطة والحرس المحلي . فكان مثلاً يضع سبورات كبيرة بدون عليها بالطباشير عدد الأفريقيين الذين أعدموا .

وبعد مرور عدة سنوات . يردد أحد مواطنيه ويسمى « توم مابويا » في كتابه « ما بعد الحرية » فيقول عن عدم إمكان تطبيق نظريات غاندى في أفريقيا : إذا استطعنا شن قاعدة عامة فإنه يتضح أن الالتجاء إلى العنف أمر لا بد منه في كل مستعمرة بها أقلية من البيض ، حتى ولو كان هذا خارجاً عن سياسة الحزب القومي الأفريقي .

نهاية خرافة :

في عام ١٩٥٣ نرى أن « ماغمووت دبوب » هو أكثر الطلبة السود تمسكاً ببيادته حتى أن مجلة « الوجود الأفريقي » جمعت مقالات للطلاب لتفرد لهم عدداً خاصاً سمته « الطلبة السود يتكلمون » فاختتم دبوب هذا مقاله في هذا العدد الخاص قائلاً : على كل أفريقي أن يقتنع بشرعية استقلالنا وعليه أن يعلم أن هذا الاستقلال حتم وضروري في هذا الجيل الذي نعيش فيه .

لقد سارت الأحداث بأسرع ما كان بتخيله هذا الكاتب ويتمناه . فقد جعل استقلال غانا في سنة ١٩٥٧ الأحداث تترى في سرعة ، حتى أنه في أقل من عشر سنوات ، أي أقل من حياة جيل من الناس من نشر هذا المقال (مقال دبوب) صارت أفريقيا كلها مستقلة ماعداً الحصنين البرتغاليين (أنجولا وموزامبيق) واتحاد روديسيا ونياسالاند واتحاد جنوب أفريقيا (أي أفريقية الجنوبية عامة) .

ويقبس الكاتب « ميتهولية » من شكسبير مقارنته المثيرة ليشرح بها كيف أن الخرافة القديمة وهي (تفوق الأوروبي) قد انهارت من أساسها . فنراه يكتب في ختام كتابه يقول : إن الأفريقي

الذى أصبح الآن واعياً للعباسية يذكرنا بكاليان الذى كان فى أول الأمر قد اعتبر كل من هبط على الجزيرة من الأوروبيين أنهم آلهة فأقسم لهم بيمين الطاعة والولاء . ثم قال حين عرفهم جيداً « كم كنت مغفلاً لدرجة قصوى حين اتخذت من هذا السكر إلهاً وعبدت هذا المجنون الذى يشتر المثلل » . ولم يشر الكاتب الرودى إلى كتاب « دراسة نفسية فى الاستثمار » للمؤلف و . مانولى حيث نجد فيه دراسة عن الوضع الاستعمارى خلال رواية العاصفة وشخصياتها .^(١)

(١) إن كتاب و . مانولى الذى نشر سنة ١٩٥٠ قد ترجم إلى الإنجليزية عام ١٩٥٦ بعنوان « برسير وكاليان » .

الباب السادس

حلف الاستعمار

« إننا نفضل الفقر في ظل الحرية على الغنى في ظل العبودية » هذا ما قاله : سيكوتوري في خطاب ترحيبه بالجنرال ديغول في ١٩٥٨/٨/٢٥ في كوناكري ، وذلك قبل شهر من الاستفتاء (استفتاء ٥٨/٩/٢٨) الذي اختارت فيه غينيا وحدها الاستقلال من بين جميع الأراضي الفرنسية في أفريقيا .

إن قولة رئيس الجمهورية (جمهورية غينيا) هذه تلخص موقف الوطنيين الأفريقيين تجاه الحجة التي يتدرع بها المستعمرون ويوجهونها لهم في معظم الأحيان وهي ضرورة المعونة الاقتصادية والمالية التي كانت تمنحها الدول الكبرى لستعمراتها تحت أشكال مختلفة . (ابتداء من الحاجة الجبركية التي يقدمها نظام التفضيل الإمبراطوري للكومنولث حتى المعونة المباشرة بواسطة استثمارات واردة من القطاع العام (باسم صندوق الاستثمار للتنمية الاقتصادية والاجتماعية) .

وفي الواقع اعتبر عدد كبير من الوطنيين الأفريقيين أن هذه المعونة ما هي إلا ضرب من ضروب الاستعباد وأنها وسيلة جديدة للاستعمار .

ولهذا فقد كرس واضعو أسس القومية الأفريقية عنايتهم في دراسة العلاقات الاقتصادية بين الدولة الأوروبية والمستعمرات .

فبالنسبة لكوامي نيكروما فإن المشكلة الأساسية في رأيه هي أن التحرر السياسي ما هو إلا وسيلة ، والغاية هي التحرر من الاستغلال الاقتصادي . فهو يقولها صراحة في مستهل كتابه بل وفي أولى صفحات هذا الكتيب الصغير بعنوان : « نحو حرية مستعمرة » فيقول إن بقاء شعوب مستعبدة تحت سيطرة الإمبريالية يستلزم صراعاً عنيفاً ومستمرًا للتخلص من نير الاستعمار والاستغلال . إن هدف الحكومات الاستعمارية بأجمعها في أفريقيا وفي غيرها من الأماكن إنما هو الصراع من أجل المواد الخام ، وأكثر من هذا فإن المستعمرات أصبحت كالمص والدول المستعمرة

(صاحبة النفوذ) ملزمة لاستقبال هذه المنتجات التي يصنعها أصحاب المصانع والرأسماليون في كل من بريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا وجميع الدول القوية المستعمرة التي تلجأ للدول النامية لها لتغذية مصانعها ، إن ذلك يمكن تلخسه في كلمة واحدة : هي الاستثمار . إن الأساس الذي يرتكز عليه استعمار الأراضي هو الأساس الاقتصادي . ولهذا كان الاستقلال السياسي هو الخطوة الأولى والأساسية لتحرير التحرر الاقتصادي .

« من الاقتصاد الذي يعتمد على السكر إلى الحلف الاستعماري »

وفقاً لما قاله نيكروما من أن الاستثمار في جوهره يرتكز على أساس اقتصادي . وتلك نظرية مستوحاة من كتاب « لينين » بعنوان : « الاستثمار هو قوة أهداف الرأسمالية » فقد أصدر نيكروما كتيبه نحو حرية مستعمرة « غداة الحرب الكبرى الثانية وبعد مؤتمر مانشستر عام ١٩٤٥ بقليل من الزمن . فهو كتيب صغير يحوي ٣٦ صفحة فقط ، وقد عني بشرح ماحوي من أفكار جميع الاقتصاديين الأفريقيين ، فلم يكن وفقاً على المشيعين لما ركس فحسب .

ولكى تفهم حقيقة هذه السيطرة الاقتصادية كما تفهم أسبابها العميقة . فقد عمد المؤرخون الأفريقيون إلى تقصي المراحل الأولى تفصيلاً لطريقة التوسع الأوروبي خارج حدود بلاده . وليستوعبوا تاريخ هذه الطريقة المعروفة تحت اسم : حلف الاستثمار .

في هذا الضمار يخصص « عبد اللاي لى » مجلداً ضخماً يشرح إحدى المراحل الأولى لهذا التطور وذلك ببرد تاريخ « شركة السنغال » حيث يدرس المؤلف نمو الاقتصاد الذي يرتكز على السكر في جزر الأنتيل وما تفرع منه من ظواهر أخرى كجلب الرقيق من أفريقيا إلى هذه الجزر . فيتساءل « عبد اللاي لى » ، ويقول : لماذا ؟ ويبيح قائلاً : لأن الرأسمالية الحديثة لا تفاهم بغير السكر . لأنه منذ زراعة قصب السكر وضمه بواسطة الآلة الصناعية حتى نقل هذه السلعة بالبحر فإن رؤوس الأموال الكبيرة تلعب دورها وإن أرباحاً خرافية تتراكم وتتكديس في أيدي الرأسماليين . وأما اليد العاملة فهم العبيد . والعبيد أنفسهم كانوا مصدراً لأرباح طائلة ولأنهم كانوا سلعة ومصدر تجارة واسعة لتداول رأس مال كبير يربط بين أسواق الرقيق في أفريقيا ومزارع الدنيا الجديدة . مثل ما كانت تحاول تحقيقه هولاندا في الربع الأول من القرن السابع عشر حين انتزعت من البرتغال شمال البرازيل حيث يزرع القصب واعتبار أنجولا مستودعاً لتوريد الدقيق .

وهكذا اعتبر المؤرخ والاقتصادي السنغالي هاتين الظاهرتين : ظاهرة الاقتصاد الذي دعامة السكر وظاهره تجارة الرقيق هما أهم مصادر الدخل التي سببت تكديس رؤوس الأموال (بالنسبة

للرأسماليين) كما سببت أيضاً قيام الثورة الصناعية . وبعرف لى « الخصائص الرئيسية لهذا الاقتصاد فيما يأتى : -

• التركيز على زراعة واحدة . فزراعة قصب السكر سارعت في إلغاء الزراعات الصناعية الأخرى مثل الدخان وقللت من أهمية الزراعات الحيوية التي يعيش عليها الإنسان حتى إن الجماعة التي تفتت لدرجة اضطررنا إلى استيراد الجاموس من أيرلندا ليأكله العبيد .

• الملكية الكبيرة : اختفت المزارع الصغيرة التي تملكها العائلات والتي يمتلكها المستعمرون الفقراء . وحلت محلها المزارع الكبيرة خاصة فإن المزارع الصغيرة كانت نادرة وقليلة .

• استغلال الطبقة العاملة : إن وجود يد عاملة رخيصة جداً وهم العبيد لا يشجع على هجرة الطبقات الفقيرة من البيض الأوروبيين .

• الاحتكار - سبيق دالماً لشركة السنغال حق الاحتكار الكامل أو الجزئى لتجارة الرقيق مخصوص عليه في هذا الاتفاق .

ولهذا فإن عبد اللالى لى يسرد بالتفصيل تاريخ نشاط شركة السنغال ومشاريعها فقد أقامت في السنغال مستعمرة منذ القرن الثامن عشر ، هذه المستعمرة كانت معدة ليسكنها البيض ، ولكن هذا المشروع فشل أخيراً وكان نتيجة لفشله وتصفيته أن فتح الباب لعهد جديد من الاقتصاد الحر وليس من الاقتصاد الموجه . وكانت المنافسة الحرة إحدى خصائصه وهو عهد النخاسة .

هذا يمكن ترجمة تاريخ شركة السنغال في الحياة الفرنسية « هذا التعبير اختتم المؤلف حديثه معدداً لحظة من لحظات نمو الرأسمالية في إطار المذهب الاقتصادى المعدنى (المذهب الذى يعتمد على التجارة) في القرن السابع عشر ، وهى فترة من فترات التوسع الأوربى . إن علاقات تاريخية مستقلة بين حقائق الماضى وحقائق الحاضر إلى جانب الاتفاق والخلاف في وجهات النظر التى لم ندونها . وعلى الأحياء منا أن يفيدوا منها بقدر الإمكان .

إننا نجد تقارباً بين أفكار « عبد اللالى » والكاتب التجيرى « ك . أنفوكا ديك » في كتابه «التجارة والسياسة في دلتا نهر النيجر» فقد كتب ديك يقول : كان رجال الاقتصاد في القرن الثامن عشر يرون أن ثروة جزر الأنتيل كانت دعامة من أهم دعائم الإمبراطورية البريطانية في ذلك الوقت ، وكانت غالبية هذه الثروة من نتاج عمل الأفريقيين . والمعروف أن التجارة المثلثة (أى التجارة بين بريطانيا وأفريقيا الغربية وجزر الأنتيل) كانت بمثابة عرق معدنى من العروق المعدنية التى منها خرج رأس المال الذى مول الثورة الصناعية .

ولكن . . . كان من نتائج هذه الثورة الصناعية أن قامت بدورها في توسع أوروبا خارج حدودها . إذ كانت هذه الثورة حسب رأى معظم الكتاب الوطنيين في الدول النامية سبباً من الأسباب الرئيسية للغزوات الاستعمارية في القرن التاسع عشر .

فيقول الزعيم الجزائري «عباس فرحات» في كتابه «ليلة الاستعمار» : إن جريمة الاستعمار قبل كل شيء جريمة الطبقات التي تمتلك . لقد كان بالطبع هناك غزوات قام بها الأسبان والمبشرون الدينيون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ولكن من المؤكد أن المغامرة الإستعمارية سابقة على عهد ارتفاع البورجوازية . ولكن هذه المغامرة لم تتخذ شكل الاستغلال العنيف إلا مع التركيز الرأسمالي . كما أن التوسع الأوروبي في آسيا وأفريقيا مرتبط ارتباطاً وثيقاً مع النمو الصناعي وبعصر استخدام الآلة . فإن أوروبا المستعمرة قد هدمت وقتلت ونفت الكثيرين على أوسع نطاق ولمدة قرون طويلة وعديدة لالشيء إلا لضمان ما تجنيه من فائدة مادية .

كما يقرر المؤرخ الهندي «بانيكار» في كتابه «آسيا والسيطرة الغربية» فيقول : بدأ اهتمام أوروبا بضمان احتكار استيراد المنسوجات والشاي وسلع أخرى . وأخيراً بعد الثورة الصناعية أحست إنجلترا بحاجة لإيجاد أسواق لها لبيع منتجاتها المصنوعة ثم لاستثمار رؤوس أموالها . ويتفق جميع المثقفين مع هذا التحليل ومنهم «ماما دوديا» الذي بعد أن صوّر وتحدث عن النتائج الاقتصادية والبشرية (من حيث عدد السكان) لتجارة الرقيق في أفريقيا فإنه يعرف مواضع القوة في هيكل الرأسمالية للقرن الماضي فيقول : لا يقف دور أوروبا السلبى عند هذا الحد لأن هدم أسس الاقتصاد الإفريقي سيستمر في ترايد دائم بالرغم من إلغاء الرق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، نظراً لشدة الدفع الإستعماري الإمبريالي للدول الغرب وهو نتيجة للثورة الصناعية الكبرى .

استغلال أفريقيا

«إن الصورة قاسية» ، هذا من جانب التاريخ . مع أنها لن تكون أقل قسوة بالنسبة للوقت الحاضر (الفترة المعاصرة) . فإن الملامح الأساسية للاقتصاد الأفريقي الناجمة عن حلف الإستعمار والتي سيصل إليها رجال الاقتصاد الأفريقيون ستكون شبيهة مع الصفات واللامح التي وصفها الكاتب «لى» بأنها ترتكز على السكر في جزر الإنسيل . ومن ناحية أخرى كان المؤلف يرمى إلى الاستفادة من الدروس الماضية ، وذلك في إبرازها بطريقة واضحة . وفي الحقيقة أن الغرابة التي

تربط بين هذين الأمرين واضحة جداً ، حتى أننا نستطيع أن نقيم رسماً بيانياً لا بينها من تطابق .
• إن الأولوية التي تخصصها الآن أفريقيا لبعض الزراعات الصناعية تتفق ونظام التركيز على زراعة واحدة مثل زراعة قصب السكر في جزء الأنتيل . وتخصيص هذه الزراعات يأتي على حساب الزراعات الحيوية واللازمة للمعيشة من غذاء وكساء .

• يطابق نظام الملكية الكمية تركيز رأس المال الذي هو في أيدي بعض المؤسسات وأصحاب المشاريع الكبرى ذوى النفوذ الواسع .

• يطابق نظام الاحتكار ترسانة حماية المارك ونظام الضرائب ذات الامتيازات الكبرى .

• يطابق استغلال العبيد استغلال الفلاح والعامل الأفريقي الذين يعطون أجوراً منخفضة

تخفيضاً غير طبيعي .

إن أحد الحلول التي قدمتها وفود غرب أفريقيا إلى مؤتمر الشعوب الأفريقية الذي انعقد في مانشستر سنة ١٩٥٤ والذي قام فيه نيكروما بدور هام ، يبرز إحدى النقاط التالية : حين يصبح بلد من البلدان مضطراً برغمه على أن يكون مصيره متعلقاً بمحصول زراعة معينة (كالكاكاو مثلاً هنا) ويصرف هذا المحصول في سوق احتكارية من ناحية أخرى ويكون حتماً على هذه البلاد ألا تزرع إلا من أجل التصدير فقط ، بينا مزارعوها وعيالها واقعون تحت سيطرة الرأسمالية وشراكها من الناحية المالية ، فن البديهي أن ينص هذا الحل على أن حكومة هذا البلد غير جديرة بالقيام بمسئولياتها الاقتصادية .

ويلاحظ «ماما دوديا» من ناحية ظاهرة لها ميزاتها من مظاهر الاقتصاد الأفريقي في عهد الاستعمار ، وهي أن رؤوس الأموال التي كانت تتداول في عهد الاقتصاد غير الموجه (الحسن) كانت كلها رؤوس أموال فردية ، أي خاصة . وكان من الطبيعي أن تستمر في القطاعات التي يكون فيها الكسب مضموناً من قبل لأنها تخضع للاقتصاد المسيطر والمهيمن ، ولأنه يتمشى مع مصالح الأفراد من حملة الأسهم ، وهم طبعاً من غير الأفريقيين . . . كما نلاحظ في الزراعة مثلاً إهمال الزراعات الحيوية التي يعيش منها الإنسان والعناية التامة بالزراعات الصناعية وأهمها البن والقطن والفول السوداني والخروع ، وإهمال جنى المحاصيل في المزارع الصغيرة كلية حتى يعمل الكسب في استغلال الغابات على أوسع نطاق ، وبهذا حل اقتصاد رأس المال محل اقتصاد الفلاح الذي منه يعيش . وحتى هذا الاقتصاد الرأسمالي لم يجد من الحكمة حتى إدماج أفريقيا وإدخالها ضمن العالم الحديث المتمددين ، بل اختار له أن يظل اقتصاداً تجارياً لا يعنى إلا بتكديس رأس المال وأهمية الأرباح .

ويوضح «ديا» بعد ذلك الأخطار الناجمة عن هذا الاتجاه من التركيز على زراعة صناعية واحدة ، فهو اقتصاد لا تنوع فيه فضلاً عن إنهاك التربة وفناء صلاحيتها ومن ثم خطر آخر هو سوء تنفيذية الفلاح الأفريقي ، ويصر «لى» من جانبه بعد أن استعرض نفس هذه الظواهر على إظهار «الدائرة الفاسدة» التي يلفها الإضطراب حول الفلاح الأفريقي . فهو مضطر لدفع الضريبة نقداً ، وإذا لا يحص عن زراعة محصول تجارى لا نفع له منه ، ولكن يبعه هو الوسيلة الوحيدة التي يحصل بها على المال المطلوب .

ويظهر في جلاء ملموس كل من «ماعيموت دبوب» و«تيفود جريه» أهمية الأرباح التي تحققها المؤسسات الكبرى ، ويؤكدان على أن هذه الأرباح إنما هي نتيجة لعدد معين من المزايا التي لا تتخذ شكل احتكار ممنوح لشركة زراعية واحدة كما كان يعطى في الماضي ، ولكنها تضمن مع ذلك للمتفعين بها حاجيتهم من المنافسة الأجنبية وتكون حاسمة في أغلب الأحيان ، ويوضح «تيفود جريه» أن ما تدفعه الشركات الكبرى من ضرائب تافهة جداً إذا قيس بالضرائب التي يدفعها الفلاح الأفريقي .

ويضرب هذا المؤلف مثلاً لذلك من ميزانية السودان الفرنسى عام ١٩٥٣ ميبناً ذلك بالأرقام من واقع الإحصاء الرسمى : -

(١) إن الضرائب التي تقدر بالطريق المباشر على سكان البلاد الأصليين (وهي الضريبة الفردية) إنما هي ضريبة تقدر جزافاً وحيثما اتفق (فهى ضرائب على الأشخاص وضرائب على الماشية وضرائب على السلاح) ومقدارها ٥٥ ٪ من إيرادات الميزانية العامة

(٢) مساهمة المستعمرين وشركاتهم في الضرائب تعد ضئيلة جداً بالقياس إلى قدرتهم على دفع الضرائب . والأرباح الصناعية والتجارية التي تظهر وكأنها مرتفعة جداً لا تشكل في الواقع إلا ٣,٤ ٪ من إيرادات الميزانية .

وإنما الحماية الهامة هي بلاشك الحماية الممنوحة لقوانين الجوارك التي تبعد المنافسة الأجنبية . ولا يدل «تيفوجريه» ببرهان أقوى من نص مقال نشر في مجلة «الحياة الفرنسية» العدد ١٦ / ٤ / ١٩٥٤ والذي ورد فيه النص الآتى :

إن رعايا ممتلكات ما وراء البحار (المستعمرات) مضطرون إلى استيراد منتجات بضمن مرتفع جداً لا تتساوىه في الحقيقة هذه المنتجات . في حين أن المنتجات ذات اللز الأرخص يستبدها المورد الأجنبى عنهم . ولهذا يزيد ثمن القمح المستورد من فرنسا ٨٠ ٪ بالنسبة للقمح الذى يستورد

من غير فرنسا وكذا السكر يزيد ١٠٠٪ وكذا ثمن الأقمشة القطنية المصوغة ٣٥٪ .
ويكشف نيكروما فضائح نظام التفصيل الإمبراطوري الإنجليزي فيقول : يشتري البضائع الإنجليزية هذا الشعار ويستعمل دائماً حتى تشتري هذه البضائع الإنجليزية بأثمان مرتفعة ، وفي الوقت نفسه تطبق على المنتجات الأوروبية الأخرى تسعيرات أكثر ارتفاعاً من ضرائب أكثر ارتفاعاً .
بذلك تقل حركة استيراد هذه البضائع . إن التعريف الجمركية إنما وضعت لحماية الإقتصاد الوطنى وهذه قاعدة عامة . . ولكن هذه القاعدة لا تطبق في المستعمرات لأن هذه التعريف الجمركية إنما وضعت لحماية التج التجارة البريطانية فقط .

ويبدى «عبد اللالى» نفس الأفكار والملاحظات في كتابه «الجموع الأفريقية والحالات الإنسانية الخالية» فيقول : إن السلع المتوردة تباع بأثمان احتكارية ترتفع وتنضم بفعل الضرائب المفروضة على قدر المبيعات . وفرض الضرائب الجمركية هذا إنما جعل لحماية بضائع الدولة المستعمرة من منافسة البضائع الأجنبية الأخرى كما تعود فائدته على ميزانيات الحكومات داخل المستعمرات .
إن اتساع فوائد أرباح المشاريع التى تملكها الدول المستعمرة في أفريقيا نتيجة للدخل الفنى الذى يضمه للدول الصناعية ، تفوقها في الإنتاج ونتيجة لتكامل المناطق التى يسود فيها إنتاج تقليدى بشئى صوره ، وذلك في نطاق علاقة الإنتاج الرأسمالى هذا رأى عبد اللالى .
لينا يتحدث الكتاب الناطقون باللغة الفرنسية عن وسائل أخرى من وسائل الحماية التى تتيح لمشاريع الدولة المستعمرة تحقيق أرباح طائفة . ولهذا يشهر نيكروما بالاحتكار الذى تتمتع به شركة صناعية « شركة صناعة الشيكولاته» في إنجلترا بفضل هيئة حكومية (هى مركز الإشراف على الكاكاو) .

أما كاتب كتاب «نحو حرية مستعمرة» فإنه لا يعنى إلا بشرح قاعدة عامة فإنه يعتبر أن الرأسمالية عد دخولها للمستعمرات لم تتبع الطريق الطبيعى في سيرها والذى سارت فيه الدول الغربية من قبل . فالإشراف الإحتكارى على جميع موارد المستعمرات أثبت فساد نظام الرأسمالية .
وإذا ما هى حال العمال والفلاحين الأفريقيين وسط هذا المفهوم . فى رأى نيكروما « أن العمال والفلاحين قد سبقوا إلى حال ليس بعدها إذلال» ثم يستمر قائلاً : منذ وصول الرأسماليين إلى المستعمرات أجبر السكان على العمل كعمال وعبيد فلم يستطيعوا تنظيم أنفسهم ، بل كانوا عاجزين عن تنظيم أنفسهم تنظيماً حقيقياً بسبب تدخل الإدارة وتدخل المهتمين على هذه المشاريع الرأسمالية . وتتلخص فلسفة الرأسمالية في المستعمرات في أنه يجب أن يعمل الوطنيون تحت أى إدارة أجنبية وليس لهم أن يشكروا ذلك لأن الوطنيون كما يزعم الأوروبيون غير قادرين على تنمية موارد

بلادهم . وإذا فهم (الأوروبيون) يعلمون الوطنيين كيف يعملون ويكيفونهم حتى يستعملوا المنتجات المصنوعة في الدولة المستعمرة حتى يصبحوا عملاء طيبين . وحتى الأجر المزبل الذي كانت تعطيه الرأسمالية للعامل والفلاحين كان يرد إليها عن طريق شراء هؤلاء للبضاعة الوضيعة التي تباعها الرأسمالية لهم . لأن الرأسمالية كانت لا تتبع سوى هذه البضائع الوضيعة التافهة . وهذه الطريقة العجيبة كانت هذه العملة الضئيلة التي يدفعها المستغل للوطني تعود إلى جيب المستغل مرة أخرى .

ومخصص «البريتفود جيري» صفحات عديدة يكشف فيها عن الحالة المذرية والمخزنة التي يعيشها الأفريقي الذي يتقاضى الأجر من الأوروبي ، كما يكشف عن فضائح الأوروبي مع الأفريقي فيقول : إن الأجر الذي يتقاضاها الوطنيون غير كافية بناتاً وتعتبر سبباً من الأسباب التي تجعل المؤسسات والشركات التي تعمل في المستعمرات تبيع أرباحاً طائلة وفريدة في نوعها . ويؤيد كاتب «أفريقيا النائرة» قائلاً : إن التفرقة العنصرية في المستعمرات تظهر أحسن وأفسح ظهوراً لها في تفرقة الأجر التي يتقاضاها الأوروبي والأفريقي . ويقلق الكاتب الداهاومي أشد القلق من ظاهرة ازدياد شرب الخمر وانتشارها في المستعمرات الفرنسية فيما وراء البحار . فيسجل أنه في عام ١٩٥٤ تم اتفاق بين وزارة فرنسا لشئون ما وراء البحار وبين بعض النواب البرلمانيين الأفريقيين ، على أن تقدم الحكومة مكافآت مالية وجوائز لتصدير النبيذ بأنواعه المختلفة إلى المستعمرات مدعين عادة أن هذا العمل عمل صحي له فائدته - وحتى يبرهنوا على هذا فإنهم يقولون إنه من مهمة أوروبا الحضارية . وبدون أن ننفي وجود الناحية الصحية في هذا العمل فإننا نتفق على أنها حجة غير كافية للإقناع ويجعلها موضع شك وشبهة للمفهوم المادي عند الإنسان المستعمر ، ونشر الشرب (شرب الخمر) في القارة السوداء .

ونرى «مامادو جلوجو» في قصة حياته التي كتبها بعنوان : «الذي نجا من إدمان الخمر» نراه يندى برأى قاطع تماماً كراى الكاتب السابق فهو يقول في خاتمة كتابه : يجب على أفريقيا أن تقهر آفة شرب الخمر فهي الآفة المورثة عن الاستعمار .

الأرض وباطن الأرض .

أولى «مامادو ديا» الأسباب التي أدت إلى هجرة الفلاحين إلى المدن اهتماماً كبيراً وتصدى لشرحها فقال : إن الأسباب الأساسية لهجرة الفلاحين الأفريقيين إلى المدن منها ظروف عمل هؤلاء الفلاحين في المدن . وإن لم تكن البطالة من «البروليتاريا» بدرجة خطيرة ، كما أن أخطر سبب لهذه الهجرة هو نزوح ملكية الأراضي التي يمتلكها سكان البلاد الوطنيون . ويضاف إلى ذلك سبب آخر

هو كسب بعض المال لتسديد الضرائب ، ومن ثم سبب آخر هو جاذبية المدينة حيث تتركز الأعمال ويعرض «ديا» مثلاً لذلك من كينيا حيث تم الهجرة من الريف إلى المدينة . وكان السبب الرئيسي في ذلك هو ارتفاع ملكية الأراضي التي حدثت بالحملة ، الأمر الذي سيؤدي حتماً إلى نهاية سنة . فيقول «ديا» : لقد سبب نزاع ملكية أراضي الوطنيين بالجملة اضطرابات دموية . فإن احتلال ثلاثة آلاف مستعمر بريطاني للأراضي المرتفعة البيضاء في كينيا وحرمان أربعة ملايين من الوطنيين من امتلاكهم لهذه الأراضي كان أماساً لحركة شعبية ظلت راکدة ثلاثين عاماً ثم انتهت بثورة عارمة هي ثورة الماروا .

ولم يكن القاد أقل لذعاً في نقدهم من الكتاب الناطقين باللغة الإنجليزية . فنيكروما يخصص صفتين كاملتين في كتابه الذي سبق ذكره حيث يقول : إنه من المضحك حقاً أن يتحدث عن أراض في المستعمرات يملكها مواطنون من المستعمرين حين تحدد ملكيتهم للجزء السطحي منها ، لأنه يمكن في باطن هذه الأرض ثروات معدنية ليس من حقهم امتلاكها . وبين المؤلف في معرض الكلام عن الخديعة والتي مؤداها تخصيص مناطق معينة لتو الغابات بينا الأمر يتعلق في الواقع بأراض تخفى في جوفها موارد معدنية . كما يورد الكاتب ملاحظة أخرى وهي أن الإدارة البريطانية تفرض على الأفريقيين أن يثبتوا حقهم في الملكية في حالة نزاع ملكية هذه الأراضي منهم . ولهذا كان الوطنيون يتحملون ظلماً كبيراً نتيجة أنه لم يكن موجوداً سجل لهذه الأملاك قبل وصول الأوروبيين . ويضرب نيكروما مثلاً لذلك القانون الذي صدر في فبراير سنة ١٩٤٤ في نيجيريا ، وهذا القانون قدمه حاكم البلاد بالرغم من معارضة الجمعية الوطنية المحلية له . وهذا القانون ينص على إعطاء الحكومة الحق في تملك جميع المواد المعدنية التي تكتشف في بطن الأراضي التي يمتلكها الأفريقيون .

وطبعي أن يعالج الوطنيون الأفريقيون في كينيا مشكلة الأراضي بطريقة مستفيضة . فإلى جانب «كينياتا» الذي يتناولها من وجهة نظرة الشخصي وهي المتعلقة بالدراسة الخاصة بعلم نشاط الشعوب وذلك في كتابه «في مواجهة جيل كينيا» نجد تصويراً آخر للكاتب «بارميناس جيند زوموكاري» فهو يتحدث عنها في كتابه بعنوان : «أفريقي يتحدث إلى بني جنسه» فهو يندد بالنظام الذي وضعته بريطانيا كاله ، ويذكر تحفيض أجور الأفريقيين الذي كان ينتج عن عام ١٩٢١ في مفهوم المجتمعات وكذا تقييد انتقال الأفريقيين داخل البلاد وذلك بإدخال نظام التصاريح ، وهي إجراءات أثارت الاضطرابات عام ١٩٢٢ الذي أشرف عليه زعيم منظمة شرق أفريقيا «هاري نوكو» (حين قض

عليه ثار المناظرون وقتل في هذه المظاهرات ٢٥ شخصاً . كما بين المؤلف أن قرار «تعويض الملاك الوطنيين» الصادر في عام ١٩٣٠ والذي كان يجيز انتزاع ملكية أراضي الأفريقيين لصالح المستعمر بدون دفع تعويض ، وكيف أن هذا القرار لم يحترم عام ١٩٣٢ ، وقد حدث ذلك بسبب امتياز استغلال مناجم الذهب في «كاكاميجا» الذي منح لشركة خاصة أوروبية ولبعض شركات أخرى . وقد انتقدت أيضاً مشكلة نزاع الأوروبيين للملكية الأراضي واختيرت هذه المشكلة بوجه خاص من اتحاد جنوب أفريقيا منذ زمن طويل . وأول بادرة من بوادر الاحتجاج الأفريق بالنسبة لهذه المشكلة النص الذي كتبه الكاتب القصصي «سول ت . بلانج» فقد كلف هذا الكاتب من قبل الحزب الوطني الكبير - حزب المؤتمر الوطني الأفريق - بعمل تحقيق عن النتائج المحزنة الخزية التي نجمت عن قانون الأراضي الصادر في سنة ١٩١٣ والذي أرغم العمال السود على هجر الأراضي التي كانوا يزرعونها حتى صدور القانون ليحل محلهم الأوروبيون ، وقد كشف «بلانج» عن فضائح هذه الهجرة الإجبارية في كتابه بأسلوب مفعم بالمرارة نشر عام ١٩١٦ تحت عنوان «حياة المواطن في جنوب أفريقيا» .

من صندوق الاستثمار والتنمية الاقتصادية إلى اقتصاد المنحة (المهبة)

في غداة الحرب العالمية الثانية قررت الدول الاستعمارية الكبرى اتباع سياسة أكثر نشاطاً لتجنيده أراضيها فيما وراء البحار (اقتصادياً - واجتماعياً) فأعدت التخطيطات وأنشئت معاهدة لزيادة حجم الاستثمار وإنشاء صناعات جديدة وزيدت المنح ، وتركز على الخدمات الطبية كل هذا في المستعمرات الفرنسية حيث أنشئ للمرة الأولى صندوق الاستثمار للتنمية الاقتصادية والاجتماعية . وأما في الممتلكات البريطانية فقد أنشئ ما يسمى «تطوير المستعمرات والقوانين الصالحة لها» وقد أقيمت أنظمة مماثلة في المستعمرات البلجيكية والبرتغالية .

وليس هناك أدنى شك في أنه كان في سريرة واضعي هذه السياسة الجديدة أن الأمر يتعلق بإصلاح بعض أخطاء الماضي وما يكون قد أغفله ثم تقديم معونة سخية الغرض منها - قبل كل شيء - الارتقاء بمستوى الإنسان المستعمر . وأن شروح السياسيين فيها مضى والتي كانت تحمل وتدعو

باستمرار بصلاحيه «المذاهب الإستعمارية» كمبدأ المعاملة بالمثل والتشبه بالأوروبي في مستعمرات فرنسا ومبدأ «الحكم غير المباشر» في مستعمرات إنجلترا . ومبدأ خلط الحضارتين بالنسبة لمستعمرات البرتغال ومبدأ التفرد العنصرية بالنسبة لاتحاد جنوب أفريقيا - كل هذه المبادئ قد أخذت مكانها بطريقة غير محسوسة إلى دراسة رجال الاقتصاد الذين يقارنون فيها حجم وموائل الاستثمار العام للدول المستعمرة فيما وراء البحار . . . فكيف إذا استقبل المثقفون الأفريقيون هذه المعونة الاقتصادية . . . ؟ .

مها يكن عدد الزعماء السياميين الأفريقيين الذين قبلوا بمجرد الشروع لإيجاد هذا الحل لأنهم كانوا يطالبون به من قبل . . . فإن الإنتقادات التي وجهت إليه كانت أكثر وأكثر خاصة بين رجال الاقتصاد الأفريقيين .

فن قبل كان نيكروما في كتابه «نحو حرية مستعمرة» يته مواطنيه ويحذرهم من السياسة الجديدة . . . سياسة المعونة الإقتصادية المقدمة إلى المستعمرات . فيقول في كتابه هذا : -
لقد علمنا خير إنشاء صندوق للتنمية الإجتماعية في المستعمرات يقدم مائة وعشرين مليوناً من الجنيهات الأسترلينية على شكل هبات . ومع ذلك إذا عملنا عملية حماية بسيطة لتبين لنا الآتي :
إذا أدخلنا في اعتبارنا عدد سكان مستعمرات الإمبراطورية لخص كل فرد من هذه المعونة ١٨ نساً في العام وأن الفوائد المنتظرة من صندوق تنمية المستعمرات تكون عديمة الفائدة أو هي وهمية . ذلك لأن هذا المبلغ (١٢٠ مليون جنيه استرليني) غير مودع في بنك من بنوك الإمبراطورية البريطانية حتى يمكن لكل دولة مستعمرة الالتجاء لهذا البنك للحصول على المال الذي هي في حاجة إليه لتنميتها اجتماعياً . ولتبسيط الموضوع أكثر أعطى مثلاً : نفرض أن نيجيريا في حاجة إلى أربعين مليوناً من الجنيهات لمشاريعها فتلجأ الحكومة البريطانية في نيجيريا إلى باركليز بنك الذي يقدم الأربعين مليون جنيه للشعب النيجيري مقابل فائدة قدرها ٦ ٪ ، ففي نهاية الأمر يجيد الشعب النيجيري نفسه مديناً باستمرار للهيئات التي كان الهدف منها معونته .

كما أن دراسات الإقتصاديين وتحليلاتهم لنشاط صندوق الإستثمار هذا كانت أكثر اختصاراً وأكثر نقداً له . فن رأى «عبد اللاي لي» أن صندوق الإستثمار والتنمية هذا لم يغير من الوضع شيئاً بل إن استغلال المستعمر باق كما هو ، ويصر هذا الكاتب على رأيه في كتابه «الكلل البشرية» فيقول : بين عام ١٩٤٦ وعام ١٩٤٩ وإبان فترة الثورات السياسية الخاصة بالمستعمرات (والتي صرّح للحديث عنها) فإن تحويل اقتصاد الحرب تحت وقع عصا حكومة فيشي ثم تحت

ضغط عصا ديجول إلى اقتصاد سلم (الاقتصاد الطبيعي الإمبريالي) قد تم في يسر وسهولة وبدون أى عائق أو أى توقف مفاجيء - وهكذا استمر تصريف كمية العمل التي يؤديها العامل الأفريقي والتي ترفضها عليه الشركات الجديدة صاحبة الإمتياز في أفريقيا وأقوى هذه الشركات احتكاراً هي شركة «نييلفر» الإحتكارية وهي شركة إنجليزية أمريكية الآن وقد كانت فيها مضى شركة إنجليزية هولندية . كما ظهرت بعض المشاريع البسيطة قدمها بعض البرلمانيين الذين يريدون استثمار أموالهم في أفريقيا ، وهذه الأموال عبارة عن أرباح حصلوا عليها من بعض المشاريع الكبيرة . ونشير بالكاد لحادث حديث ومرتبب ارتباطاً وثيقاً بتصريف كمية العمل التي يقدمها العامل الأفريقي نظير أجر يتناسب مع إنتاجه وهو استثمار رأس مال أفريقي صغير .

ولكى يدغم (عبد اللاي لي) رأيه استند على مقال للكاتب «فرنسوا ولتر» نشرته صحيفة - «الموند الفرنسية» وقد نقل «لي» فقرات طويلة من هذا المقال في كتابه السالف الذكر حيث يقول : إن الذى يظهر في جلاء في الأراضي الفرنسية فيما وراء البحار هو مساهمة الدولة الأوربية المستعمرة من الناحية المالية كما يظهر بطم التوسع إلى جانب ضعف الاستثمار الخاص وازدياد التفضيل الممنوح للبضائع المستوردة من الدولة المستعمرة كل هذه الأمور متأسكة ومتساندة . فلو أن نظاماً معتدلاً في التفضيل عمل به لما خالف ذلك المنطق السليم والصواب . ولكن أراضيها فيما وراء البحار محوطة بشبكة من القيود ومن حقوقنا تجعلنا نحن الفرنسيين مضطرين لتوريد $\frac{2}{3}$ مجموع ما يستوردونه علماً بأن $\frac{5}{6}$ وارداتهم من أوروبا . وأن مثل هذا الامتياز المزم يكلف تكاليف باهظة . إذ تضطر هذه المستعمرات أن تستورد البضائع باليمن لأن البضائع الرخيصة يمنع دخولها هذه المناطق ، وهذا يقلل من دخل المستعمر الحقيقي ومن ثم يقلل من الموارد التي يستطيعون أن يستقطعوها من هذا الدخل لكي يضمنوا استثمار أموالهم . والذي يشجع أكثر وأكثر هو أن صناعاتنا في فرنسا تعتمد اعتماداً كبيراً على ما تسنه من قوانين لحماية هذه الصناعات حتى تسيطر هذه الصناعة بفعل القوانين على أسواق أراضي المستعمرات . فلم تحاول هذه الصناعة أن تمول التقدم الصناعي هناك . إذ أنها تخشى المنافسة ، ولهذا فإنه بالرغم من المشاريع التي تمولها خزينة دولتنا (فرنسا) العامة فإن مجمل المبالغ المستمرة في المستعمرات يظل غير كاف . ومع ذلك فإن الميزان الحسابي بين فرنسا (منطقة الفرنك من جهة والدول الأجنبية من جهة أخرى ليس في صالح فرنسا . وإذا فهذه البضائع تصرف في السوق السهلة (أى في أراضي المستعمرات) بدلاً من أن تشق طريقها نحو الأسواق الخارجية . فإذا كانت النتائج ؟ . . الميزانية الفرنسية مثقلة بدرجة كبيرة ، وتنمية المستعمرات بطيئة والمعونة غير

المباشرة تعوق الصناعات الفرنسية في أن تبذل جهداً بحيث تستطيع مناقشة الدول الأخرى .
وكما تلاحظ أن الكاتب «لى» يهتم المفهوم الذى تتضمنه المعونة الاقتصادية أكثر من اهتمامه
المعونة نفسها ، ويرى أن عملية صندوق الاستثمار للتنمية الاقتصادية والاجتماعية لن تؤدي
إلا للفشل لأنهم لم يغيروا شيئاً من بيان الحلف الاستعماري .

ويبرز «مامادوبيا» في كتابه «آراء حول اقتصاد أفريقيا السوداء» يبرز أهمية الطريق المعطف
الذى اتخذته اقتصاد المستعمرات غداة الحرب العالمية الثانية . إذ بدت لى سياسة المعونة والاستثمار
كأنها تنبئ بنهاية اقتصاد الحلف الاستعماري ، وبين رجل الاقتصاد السنغالي أهمية الاستثمارات التى
حققها صندوق الاستثمار للتنمية الاقتصادية والاجتماعية تحت اسم النقطة الرابعة الأمريكية التى
يتولاها البنك الدولى ، وكذا الاستثمارات التى تتولاها هيئة التعاون والتنمية فى المستعمرات وغيرها .
كل هذه الدلالات تجعلنا نعتقد أننا نسير فى طريق اقتصاد مبنى على الهبات . والمنح ولا يمكن أن
نحيد عنه . ومهما كانت البواعث التى تتسم بطابع الأنانية أو بغيرها والتى سببت هذا التطور فإن
«مامادوبيا» يرى أننا لن نستطيع أن نعتبر هذا الاقتصاد المبنى على الهبات أنه باعث على إحياء الحلف
الاستعماري بصورة مبسطة واضحة ولكن هذه الملاحظة لا تمنع «ديا» من تقديم محفظات هامة .
ويبين هذا الكاتب السنغالي أن الطابع الأساسى لهذا التطور هو أنه تابع عن السلطات العامة . كما
يلاحظ أن هذه السلطات العامة قد تحلت فى كل مكان تقريباً عن دورها كموزع للسلفيات المالية
على شركات اقتصادية مختلطة حيث تهيمن وتسيطر المصالح الفردية .

وعلاوة على ذلك فإن سياسة الاستثمار الجديدة لم تغير من تبعية الدول الأفريقية تجاه بعض
الزراعات الصناعية مثل الفول السودانى والكافور والبن وخلافه . ويظل اقتصاد هذه الدول
حساساً لتقلبات الأسعار العالمية أكثر من دى قبل .

وأخيراً فإن العمال الأفريقيين لم يستفيدوا من هذا التقديم السريع فى الإنتاج . ونستطيع أن نقول
إنه حتى القوة الشرائية لهؤلاء العمال قد انخفضت . فى السنغال مثلاً كان الفلاح الذى يبيع مائة كيلو
جرام من الفول السودانى فى سنة ١٩٣٨ يستطيع أن يشتري لنفسه ٧٥ كيلو جراماً من الأرز . بينما
نرى فى عام ١٩٥٥ أن نفس الكمية (١٠٠ كيلو جرام) من المحاصيل التى يستخرج منها الزيت
لا يسمح له بأكثر من ٤٢.٥ كيلو جراماً من الأرز . وعلى هذه الوثيرة يستمر النقد لهذه الأوضاع
ويصير لادعاً . وقد اقترح «مامادوبيا» البرنامج التالى : بناء اقتصاد يكمل بعضه البعض ويقام أولاً
داخلياً (محلياً) بين مناطق الإنتاج الكبرى على أن تنظم على هيئة مجموعات اقتصادية كبيرة بفضل

تعديل الحدود تعديلاً يحترم الأوضاع الجغرافية أكثر مما فعله تقسيم أوروبا لهذه الحدود سياسياً . وعلى أن يكون هذا الاقتصاد الجديد اقتصاداً مكماً للغرب وذلك بمعنى التضامن المشترك الحقيقي حتى يصبح التعاون بين أوروبا وأفريقيا تعاوناً سليماً لا على أساس المشاركة بين القوى والضعيف .

حجة خاطئة (تعلل خاطئ) .

هناك مشكلة كبرى يجب أن تحلها أى سياسة استثنائية . . هذه المشكلة هي : القطاعات . إذ يجب أن يبدل فيها المجهود الرئيسى . ويهاجم «مامادوبا» إحدى هذه التعللات الخاطئة التى يزعمها بعض رجال الاقتصاد وبعض رجال الجغرافيا . بل ويفرضونها على أفريقيا . هذه الحجة هي :

هل يجب إعطاء الأولوية للزراعة أم للصناعة ، وهل يمكن أن تتخلى واحدة لصانع الأخرى ؟ .

يقترح «مامادوبا» اقتصاداً متوازناً يعطى لكل من الزراعة والصناعة مكانتها ويفضح آراء بعض رجال الجغرافيا الذين يدعون أن قدرة أفريقيا كانت أولاً وقبل كل شيء كفاية زراعية ولهذا فهم يحكمون عقيداً بالتخلف الطويل الأمد .

ويرد «ديا» على «بيرجورو» الذى يرى أن التصنيع يجب أن يؤجل إلى أجل بعيد بسبب الظروف الجغرافية المحلية وخاصة قلة عدد السكان ، ورد هذا فى كتابه بعنوان «البلاد الاستوائية» ويرد «ديا» قائلاً إننا نلاحظ أن نوعاً معيناً من الطابع الأبورى ينتج بين صاحب العمل والعامل يميل فيه الأول إلى الاحتفاظ بالسلطة وإلى رعاية الآخر وهو أمر يفتنى وراء الصيغة الفنية وبين نظرية وظيفة أفريقيا على أنها وظيفة زراعية محصنة وأن القارة ستظل مصدرراً أبدياً للمنتجات الزراعية للأمواق الخارجية .

وفى خلال المؤتمر الثانى للكتاب والفنانين السود هوجم رجل من رجالات الاقتصاد الأفريقيين من الذين يشنون فكرة أن الزراعة يجب أن تظل المورد الرئيسى للقارة ، فاختتم هذا المؤلف تحليله بقوله : مها كانت وجهات نظرهم الأيديولوجية فإن رجال الدول النامية يرفضون قبول أى شرح تكون نتائجه بقاءهم فى الفاقة قانعين^(١) .

(١) يجب ألا تخلط اسم كاتب المقال (مستويات رجل الاقتصاد الأفريقى) وهو سنفالى مع لدبوماسى الموريتانى الذى يحمل نفس الاسم .

ولكن الأمر المثير والذي يسترعى النظر أكثر فأكثر هو أن ما يسوقه الكتاب غير الماركسيين من آراء وحجج مثل «تيفوبرجيريه» وهو مسيحي متعصب لدينه فإن هذه الحجج تلتقي بآراء وحجج إخوانه من الكتاب المتسكين بالأيديولوجية الماركسية وأن هذا اللقاء يختلف في درجة لقائه ابتداء من «ديا» إلى «لى» إلى ماهيموث ديوب .

الباب السابع

الأدب المنحاز

« إن الأدب الأفريقي أدب منحاز » صرح بهذا القول « ليومولد سيدار سفور » في المؤتمر الأول الدولى للكتاب والفنانين السود الذى عقد فى السربون عام ١٩٥٦ . وعليه فإن الشعر والقصة الأفريقيين محصوران ومحددان فى إطار الموقف الاستعماري ، ولم يخرج عنه الشاعر ولا القصصى الأفريقى ، بل عاشا فى هذا الإطار ولم يخرجوا عنه أمثال « سينير » فقد رأى فيها « أسلحة سحرية » يقاتل بها غالبوه ويقهرهم لأنهم أناس سذج .

فقد حذا الشعراء الأفريقيون فى الواقع حذو شعراء جزر الأنتيل الذى منهم « ليون ج . دماس » فهو أول من جمع عام ١٩٤٧ نصوصهم فى كتابه بعنوان « مختارات من الشعراء الناطقين بالفرنسية » .

كما كان مؤلف كتاب Black Label et Pigment حيث يقول إنه انقضى الزمن الذى الذى كان فيه الشاعر الزنجي فى جزر الأنتيل يحس شرفاً كبيراً إذا ما استطاع الرجل الأبيض أن يقرأ كتاباً له دون أن يعلم أن مؤلفه رجل ملون . ويسترسل « دماس » فى حديثه قائلاً : لم يعد من اليوم أن يكون الكاتب صاحب ضمير أو أن يحافظ على ما تقتضيه قواعد اللغة أو أن يخرج على أوزان الشعر أو يقوم بتأليف قصائد لا عيب فيها . فقد عاش الشاعر على التراث الذى خلفه أمثال « الكونت دى ليل وفرنسا كوبيه » و « وسلوى برودام » و « كافول مندس » و « وليون ديركس » وأصبح وارثاً لهم .

فقد أنقضى عهد الكتب والتحرير وحل محله عهد آخر . عهد أحس فيه الإنسان المستعمر عن وعى وعن فهم حقوقه وواجباته ككاتب أو روائى أو صحفى أو شاعر . فالفقر والجهل واستغلال الإنسان للإنسان والفرقة العنصرية - اجتماعية وسياسية - التى يقاسى منها الرجل الأسود أو الأصفر وكذا أعمال السخرة والظلم وعدم المساواة والكذب والاستسلام والنصب

والاحتياط والمزاعم والشكابة والجبن والتنازل والجرائم التي ترتكب باسم الحرية والإخاء والساواة كل هذا تناوله الشعر القومي المكتوب باللغة الفرنسية . واختتم هذا الشاعر « داماس » حديثه قائلاً : وتداخل الأدب في السياسة أكثر فأكثر وانفتحت الأحداث وأزمنتها بينها في مؤلفات تمثل المدرسة الحديثة (١) .

وبعد مرور خمسة عشر عاماً وجد « هنري كريا » التعبير الذي جعله عنواناً لديوان شعره الجزائري . هذا التعبير هو : إن الثورة والفرشىء واحد « وفي نفس العام كتب أحد رواد الشعر الأفريقيين « ماريو دى اندارده » وهو من الشعراء الناطقين باللغة البرتغالية . كتب يقول : « ليست هناك حاجة للعودة هنا إلى الموقف المشترك الذي اتخذته الشعراء الأفريقيون والذي يظهر بوضوح في مؤلفاتهم . فهم جميعاً يؤمنون بأن الموضوع الأساسي يدور حول معركة الهدف منها تبييد الاضطهاد الاستعماري : ولقد لخص « فريسكو تندنشونا » هذا الكفاح في جملة واحدة فيقول في مستهل ديوانه بعنوان « أزهار من الخريف الأحمر » : لست شاعراً إنما أريد أن أكون مكانها » (٢) .

الشعراء

لقد ألهمت شعراء أفريقيا بالوحى كل من الثورة على السيطرة الاستعمارية والشعور بالألم والضغينة من التفرقة العنصرية ، وكذلك المرارة التي ترمست في النفوس من مجارة الرقيق ، ومع أن هذه الذكريات بعيدة إلا أن تصوير الرق بقي موضوعاً هاماً تناوله الشعر الأفريقي بالوصف وبالعلاج . وهل كان يمكن أن يكون غير ذلك ؟ . . .

ففي عام ١٧٧٣ كتبت الشاعرة الأمريكية « فيليس وتلي » وهي إحدى رائدات الشعر الأسود ، كتبت تقول في قصيدتها :

أستطيع يا إلهي عندما تنصت إلى غنائي

أن تعجب وتدهش من أين ينبثق حسي للحرية ؟

إنه ينبثق من حيث تنبع سعادة الجميع .

والتي نغمها فقط المقلوب الحساسة

(١) من مقال صدر في مجلة أوربا عدد ٣٨١ في يناير ٦١ تحت عنوان شعراء سود ناطقون باللغة البرتغالية .

(٢) ورد في كتاب (توماس ميلون) بعنوان الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية في الأدب .

فأني وأنا صبية صغيرة انتزعتي القدر القاسى من مهدي السعيد في أفريقيا .
فأى سيل لدمع يمزق القلوب وأى حزن مزق قلب والدى
لقد كانت نفسى صلبة كالحديد لم تتأثر بإحساس الشقاء
هى النفس التى انتزعت لبتة من أحضان أبيها
تلك كانت قصتى

فهل أستطيع أن أتوصل إليك يا إلهى حتى لا يدوق غيرى أبداً مثل هذا المصير الجائر (١) .
ويوجه الشاعر البرازيلى المولد (ولد من أب أبيض وأم سوداء من الرقيق) «لوى جاما» والذى
أصبح محامياً بعد أن ثقف نفسه بنفسه - وجه هذا المحامى صرخته مدوية للطبقة الأرستقراطية فى
البرازيل الذين تناسوا أصلهم الأسود بعد مرور مائة سنة . صرخ فيه ليثأر من ازدراهم للسود
فيقول :

إذا كان نبله اليوم الذين يملوهم الغرور
أجداداً يذفون فى غيبنا
وهم سادرون فى الكبر والرذيلة .
قد تناسوا السود الذين هم إخوانهم
فإذا كان هؤلاء المولدون وقد شحب لونهم
قد أصبحوا يعتقدون أنهم من أصل عريق
وتحصفهم نزوة حب الظهور فتجعلهم يحثقرون جدتهم السوداء
قد تدهش أبها القارئ من هذه البدعة الجديدة
ذلك لأن كل شىء فى البرازيل غريب الأطوار (٢)

ويقدم الشاعر الكورى الزنجى «نيقولا جين» نفسه إلى القراء فى ثلاثة أبيات من الشعر فيقول :
إبنى ابن
وحفيد

وحفيد عبد (من الرقيق) (٣)

- (١) وردت هذه القصيدة فى كتاب الأب «جرىوار» بعنوان نذرة عن أدب الزوج .
- (٢) وردت هذه الأبيات فى كتاب «روحيه باستير» بعنوان نشأة الشعر الزنجى فى البرازيل .
- (٣) من كتاب تحت عنوان : أغاني كوريه وقصائد أخرى ترجمة كلود كوفون إلى اللغة الفرنسية .

إن ما يشير الدهشة حقاً أن موضوع الرق مازال مدار شعر الأفريقيين حتى الآن . ويقدم لنا سارتر في كتابه «إله الموسيقى الأسود» تعليلاً لهذه الظاهرة الخاصة بالرق فيقول :

لقد شرب الأفريق كأس المرارة حتى الثالثة خلال القرون العديدة من العبودية . وأن العبودية حدث من أحداث الماضي لم يعرفه كتابنا ولا آباؤهم معرفة مباشرة . ولكنه كان كابوساً ضخماً جثم فوق صدورهم حتى أن الجلد والجدة منهم غير واثقين إن كانا قد أفاقا من رقادهما بعد وتخلصا من هذا الكابوس . ففي كل ناحية من نواحي الأرض مجد السود الذين فرقهم لعنة وسياسة مستعمرهم يمتزنونها في ذاكرتهم كحدث مشترك ولن يدهشنا هذا الأمر إذا ما ذكرنا أن الفلاحين الفرنسيين عام ١٧٨٩ مازالوا يذكرون الرعب والذعر اللذين حاكما بهم وبأجدادهم إبان حرب المائة سنة (١) .

ويقينا أن مختارات «سنفور» هذه والتي يعتبر كتاب (سارتر) «إله الموسيقى الأسود» مقدمة لها يرجع تاريخها إلى عام ١٩٤٨ وتشمل عدداً من كتاب جزر الأنتيل أكثر بكثير من عدد الكتاب الأفريقيين . ولكن تحليل سارتر لا يزال صحيحاً بالنسبة للكتاب الأفريقيين المحدثين أمثال الكاتب الكونغولي «مارتال سندا» الذي لم ينس مطلقاً هذه الذكرى الأليمة كما يظهر جلياً في قصيدته «نور الفجر» حيث يقول :

يا تاجر الرقيق

أيها المرح الذي لا يندمل في كف أفريقيا

إن صوت السياط وآثار الحبال حول لأعناق

لتحبس تيارات فكرى التدفقة الثائرة

•••

وما ذكريات الشاعر (تشيكا يا اتمام) «بأقل من ذكريات» «مارتال سندا» حساً ، حين كتب كتابه بعنوان «تاريخ مختصر» فيقول :

كان البحر لا يطيع سوى ربان سفن النخاسة والرق

وكان العبيد يهرون إلى السفن مدفوعين برغم ابتساماتهم الساحرة

وكانت أجراس الحظر تدق . بتوجيه ضربات من الأقدام في بطون الحبالى من النساء اللانى

يمشين . فيعلن وقتذاك حظر التجول حتى لا يراهن أحد أثناء احتضارهن .

ومن ثم أمر آخر . . . ماهو الفارق بين العبد الرقيق والمستعمر؟ . . .

(١) ورد هذا في كتاب «ليوبولد سنفور» بعنوان مختارات من الشعر الرعوى والملاجشى الجديد .

فالكاتب الشاعر الملاجاشي «رابيرفلور» لا يجد فارقاً ما بينها إذ يقول :
إن صانع الزجاج الزجاجي الذي لم ير
أحد حدقات عينيه ذات النظرات التي لا تحصى
والذي لم يظاوله أحد في ارتفاع كفيه
هذا العبد الموشى بأوان من زجاج

• • •

وكل هذه الذكريات ما هي إلا ظواهر للموضوع الأهم وهو حالة الزنجي . . . فيتحدث الشاعر
«برنارد داريه» عن شفاثة كتاب «دورة الأيام» فيقول :
وأن جعلتني أحمل جميع الآلام . . .

• • •

كما يصف الشاعر الأنجولي «أجوستينوتو» شقاء الزنجي المستغل فيقول :
نحن أطفال الأدغال من : سزلاس : العرايا
الصغار بلا مدارس والذين يلبعون بكرة من الحرق
على أراضٍ مسطحة وقت الظهيرة
إننا نحن الذين نستأجر لكي نحرق حياتنا في حقول البن
نحن السود الجلهاء الذين يفرض عليهم احترام البيض
وأن نحشى الثرى صاحب المال
إننا أبناء أحياء الزوج التي لا يدخلها الكهرباء وأبناء
الرجال الذين يعانون سكرات الموت على نغبات ودقات الموت
أن أبناءك جياع وعطشى
إنهم يججلون من أن ينادوك بلفظ (أماه)
فهم يحشون عبور الشارع ويحشون الناس (١)

• • •

وقد جمع «دافيد ديوب»، كل ألفاظ الإهانات التي توجه لبي جنسه من الزوج في قصيدته
بعنوان «الأبيض قال لي» فيقول : -

(١) ظهر هذا الشهر في مجلة «أوربا» عدد يناير سنة ٦١ .

ما أنت إلا زنجي

زنجي قدر

فقلبك اسفنجة معدة لتشرب من جنون السائل المسمم بالزذيلة

ولونك يجيش دمك في العبودية الخالدة أبداً

فقد طبعك حديد العدالة المحمى . طبعك جسدك بالقسق

وطريقك متعرج بالإذلال . ومستقبلك أيها الوحش الملعون

هو حاضرك الملىء بالخزى والعار (١)

• • •

ولكن هذا ليس أن الشاعر الزنجي يحتاج للاستسلام . فإن ثورته قائمة على العمل المجيد الأسود الذى طالما تحدث عنه سارتر ، ولاحظ التصميم عليه وأظهره في قصائد عدة من مختارات «سنفور» ، ومن أهداف هذا العمل المجيد انتزاع الزنجي من إطار الاستسلام والرضوخ الذى اعتادوا تصويره على صفائح من النحاس . إنهم بلا شك شعراء هائلي مواطنو «توسان لوفيرثير» الذين سيكونون أول من يفعل ذلك من أجل الزنجي . فما هو «جاك رومان» الذى يرى أن الزنجي هو ناقل الثورات وناشرها (٢) .

• • •

يوجه «جان . ف . بريير» خطابه لبنى جنسه ليذكرهم بكفاحهم الذى لا ينتهى ضد السيطرة الأوربية فيقول : -

إن خمسة قرون ترقبكم حاملين السلاح

حيث تغتم الأجناس المستقلة درماً في الشعور بالحرية

ففي سانت دمنجو - ملأتم بالضحايا ورفضتم بأحجار لا تحمل الأسماء

الطريق الضيق المتوى الذى فتح ذات يوم على طريق الاستقلال المظفر (٣) كما أن الشاعر

«بيريا موت» قد أعلن من قبل ميزان العدالة الذى سيضعه الشاب الأسود فيقول : -

لقد اغتالوا إخواننا . والذكور مالان مع رجاله

يشربون القهوة والشاي باللبن . إنهم يقتلوننا

(١) وردت هذه التصيدة في كتاب الشعر الجديد الزنجي والملاجشي .

(٢) ورد هذا في كتاب «الشعر الجديد الزنجي والملاجشي» ص ١٤٠ .

(٣) ورد في نفس الكتاب المذكور ص (١٢٦) .

ولكننا مستمرّون . نتقدّم على أيدينا وأرجلنا . نحن الشعب الأسود . تشجعوا
إنهم يسمعوننا . متّصل . إننا نسبح باسمك يا شمس الحربة
في كل صباح وترحف في كل فجر فوق النيران اللهبّة .
من العدالة . ها نحن نلمس فجرنا بأيدينا بقوة سواعدنا وكماننا (1)

* * *

وكثيراً ما تناول الأفريقيون الشعراء مهمة «أوروبا في نشر الحضارة» في أشعارهم ساخرين
وواصفين . فنجد «أمامو مصطفي واد» تناولها في ملحمة الاستعمار «قاتلا في اقتصاب : -
هاهم قادمون «ناقلو الحضارة» وهم يصوبون
المدفع والثورة نحو القلب الأفريقي
لقد امتلأت الأرض بالدماء . لأن أبناءها نهضوا
لكي يدافعوا عن فجر الحرية (2)

* * *

ويستعيض الشاعر النيجولي «ر . ي . ج ارماتو عن صيحة الألم والإحساس بالمهانة بالسخرية
والهكم . فقرأه يهدي قصيدته «مقبرة انرجل الأبيض» بأسلوب لاذع ساخر إلى السير فرانسيس
جالتون مؤسس معمل جالتون بجامعة لندن والذي كان يأمل في أن الأجناس الصفراء من الصين
سوف تقصي الأفريقي الأسود الفظ المهمل عن الأقاليم التي توجد فيها المعادن في أفريقيا الاستوائية .
كما أننا نلاحظ في كل شعره النغمة السائدة التي تتعلق بآلام الإنسان الأسود وثورته .
كأن السخرية أيضاً ملاح استخدمه الشاعر النيجيري «فولي سونيككا» في كتابه (حديث
تليفوني) حيث يسخر في أسلوب لاذع مرير من سيدة إنجليزية صاحبة منزل أعلنت عن إيماره
وكيف أنها تصر على إيضاحات خاصة بون بشرته - كل هذا في حديث تليفوني عندما حادتها بناء
على هذا الإعلان .

ويساير هتك شعار الاستعمار ونظمه وكشف فضائحه التغيى بعظمة وبجمل أفريقيا فإنها يسيران
جنباً إلى جنب متحدين المستعمر بأناشيدهم المعبرة عن وطنهم الحقيقي .
فيغني «مارنال سندا» في نشيد أفريقيا : فقرأه تارة لأمّاً على الكذب فيقول : -

(1) ورد في كتاب الشعر في التاريخ .

(2) وردت في مجلة الوجود الأفريقي ص ٢٠١ العدد ١٤ .

يا أفريقيا لماذا أنت بلاد القصص المشوهة على غط الكاتب
القصصى الأبيض

وتارة مقهورة بقهرها الغزاة كما نجد في قصيدته (الطبل) تام تام . (دقات الطبول) فيقول :-

أفريقية الماضي

أفريقيا المغلوبة على أمرها

يا أفريقيا . يا قارتنا الأفريقية

كما يكتب الشاعر «برنارد داووه» قصيدة طابعها التصوف فيقول في قصيدته بعنوان «تاج
أفريقيا»

سأصنع لك تاجا من الضوء الخمر

وبيريق وببهاء فينوس المناطق الاستوائية

وفي مدار التلائؤ المحموم الصادر عن الجرة

سأكتب بحروف من نار اسمك يا أفريقيا

وعند العودة من إقامة طويلة في إنجلترا اكتشف «دافيد شن نيكول» معنى الوطن الأفريق
بالنسبة إليه :

إنى أعرف الآن ما أنت يا أفريقيا

إنك السعادة والرضا والامتلاء

والطيور التي تغرد على شجر المانجو

وقد ظهر موضوع التحرر الأفريق في الشعر الزنجي في هذه السرات الأخيرة . فالاستقلال في
رأى «ميشيل دى أنانج» الذي كثيراً ما تناه منذ سنة ١٩٤٩ لا بد أن يكون عصراً ذهبياً مليئاً بالنور
بعد هذا الماضي المظلم المليء بالكفاح فيقول :-

حينما يبرغ فجر الاستقلال على هذا الشاطئ الذهبي

آه . دعوه يبرغ على أرض يكون فيها نور الحرية

الرائع . فيطرد الحزن والطمع وسحب الخلاقات

وقد كان تحرر الوطن مصدر وحى « لبولدن جواشم » حتى ولو كان التعلق ينشق من شعره حيناً
يحيى « أفريقيا التي أصبحت تسبح في حرية » يقول : -
إننى أحيى أفريقيا التي أصبحت تسبح في حرية
إنها نهاية المتاعب يا أمى . إننى أبتجق فإبهم
أقاموا ثرواتهم وإمبراطورياتهم على براءاتك ونجلك
فيا إلهى تخير لهذا الشعب الرعاة الصالحين
ولا يكونون حكاماً مجانين طامعين لا يعملون إلا
لرفع مصلحتهم ليرقوا إلى مصاف المعبودات
إننى أحيى أفريقيا الحرة

ومرعان ما حل الوقت الذى يمتدح فيه الشاعر « لونه الأسود » ويطره كما فعل الشاعر الغاني
« ف . ا . كويينا باركره » في قصيدته بعنوان (السماء الأفريقية) يقول : -
اعطني أرواحا سوداء
ودعهم كما هم سود أو في سواد الشيكولاته
أو اصبغهم بلون التراب حتى يصبحوا ترابا
ولكن إذا استطعت فإني أتوسل إليك
في أن تحفظ عليهم سوادهم ليقوا سودا
ومن المؤكد أنه يوجد شعر زنجي غير منحاز . فمواضيع الفولكلور تحتل مكاناً بارزاً لدى الشاعر
« بيرنجو ديوب » في قصيدته « نفحات » أو نسيمات فيقول : -
أنصت إلى الأشياء أكثر من إنصاتك إلى المخلوقات
فإن للنار صوتاً يسمع
استمع إلى صوت الماء
وانصت إلى بكاء الأدغال في الريح
إنها آهات الأسلاف والأجداد

ويوحى الفولكلور للكاتب النيجيرى « ادبوى بابا لولا » فيكتب كتابه (شخصيات من الريف)

ويلهم أيضا الكتابة الغانية «إيفو مورج» في كتابها «تاريخ قبائل آشانتي» الذي كتب على نمط القصص عند الكاتب الفرنسي «بيرو» فنقول : حدث مرة أن كان جوز الكولا نادراً . . . وربما كان الأدب غير المنحاز انعكاساً للاهتمام بعدم إثارة غضب الإدارة الاستعمارية على الكاتب ، فهذا هو رأى الكاتب «دافيد ديوب» خاصاً بديوان أشعار الكاتب الكونغولي «انطون روجيه بالامبا» حيث يقول : هل هذا هو الحرص (فإننا نعرف على التخصيص قسوة الإدارة الملكية البلجيكية) الذي يدفع بالامبا «إلى أن يتعد عن مواضع الخطر الكبير؟ . . . ذلك أنه من المحال أن يصف إلا ما يراه في بلاده . وإني أشعر من جهة أخرى أن هذا الشاعر الكونغولي في قصيدته بعنوان «لوكول» أو طول النصر» يترك لنا مجال التخمين حتى نلم بأفكاره حيث يقول :

إني أسمع صرخات الهزيمة التي لا عيص عنها

إني أسمع فحيح الأنانية

وتفزع مكاناً للروح التي

تربيع على عرش قلبي وتدفق فيه

طول النصر. إنه انتصارى

إنه انتصارنا^(١)

ويصف الشاعر النيبا سلاندي «جيمس . رروباديري» اللقاء التاريخي بين ستانلي والملك الأسود موتيزا» يصف ذلك اللقاء دون ضغينة أو حقد ولكن يرضى عليه وقاراً كثيراً فيقول :-

يفتح على مصراعيه الحاجز من الغاب

هدوه لحظة واحدة من هدوه

هدوه حتى نزن الرجل

فيتقدم الملك الأسود العظيم

فيسيطر على هذا الرجل الأبيض النحيل ذى اللحية

فيشد على يده قائلاً له : أيها الرجل الأبيض

مرحبا بك . ويقفل الحاجز وراءها

لقد دخل القرب

(١) أن لوكول هو اسم لنوع من الطبل النحاس كان يستخدم فيها مضى لنشر الأخبار بدقات معينة .

ولقد تغنى الشعراء السود بالمصالحة والوثام فيمتدح الشاعر «دى انايح» الملكة الزواييت رئيسة الكومنولث والتي استقلت بلاده أيام حكمها . يقول :

ياملكة القارات الواسعة والبحار
إن أبناءك البررة المختلن الأجناس متحدون
إن العالم يصفق لجلالتك

وإن إبعاد الحقد والرغبة في التسامح لم يتظنرا نحو الاستمرار لكي يعبرا عن مشاعرهما ، فقد كان الشاعر «سنبرنو» يقول في كتابه «في مذكرات عودته إلى الوطن»

اعصمى ياقلبي من كل حقد
ولا تجعل مني الرجل الحقود الذي
لا يملك سوى الحقد . حتى أحتمي في
هذا الجنس الفريد في نوعه
إنك تعلم مدى حبي الطاغى وتعرف أن سببه
ليس الحقد على الأجناس الأخرى .

إني أصر على أن أكون ضارباً بمعمول وإن أكون من هذا الجنس الفريد في نوعه
إن ما أريد هو من أجل الجوع العالمى والظماً العالمى حتى أمسى حراً آخر الأمر

ويردد الشاعر «فيلكس تشيكاييا أوتانس» صدى صيحة سبزير في قوة وفي ترفع فيقول :

لن أرى دمي على أيديهم
وأنسى أني زنجي لأجل أن أغفر ذلك للعالم
لقد قيل إنى سأترك للسلام وشأني ولا أكون كنفوليا
ويظهر الغفران المسيحي والصفح في أظهر صورة عند «سنفور» إنه دعاء السلام الذى يسبقه
النفس المكتوب تحت الوسام . فيقول هذا الشاعر في قصيدته «دعاء السلام» مايلي :-
إن عيني تمتلئ بالدموع

وها هو نعبان الحقد يرفع رأسه في قلبي . ذلك النعبان الذى ظنته قد مات
اقتله ياإلهي لأنى أحب أن أستمز في طريق وأريد أن أصلى من أجل فرنسا خاصة

يا إلهي ضع فرنسا على يمينك من بين الأمم البيضاء
أه إنني أعرف أنها بيضاء من أوروبا وأنها هي التي اختطفت أبنائي كما يختطف
قاطع الطريق الشبالي البقر يحنسب أراضيه التي تزرع قصب السكر والقطن
لأن جهد الزنجي وعرقه نوع من السباد
إنها نقلت الموت والمدفع إلى قرانا الزرقاء الوداعة وجعلت قومي يقف الواحد منهم ضد

أخيه

كما يتشاجر الكلاب من أجل عظمة
وإنها عاملت من قاومها كأنهم قطاع طرق ولصوص وبصفت على الرؤوس ذات
المشاريع الواسعة .
عم يا إلهي اغفر لفرنسا التي ترشد إلى الطريق المستقيم والتي تسير في الطرق الضيقة
الملتوية .
والتي تدعوني إلى مائدتها وتلزمي أن أحضر معي غذائي (خيزي) والتي تعطيني باليد
اليمنى وتزج نصف ما أعطيتي بيدها اليسرى .
نعم يا إلهي اغفر لفرنسا التي تكره أن تحتل وتفرض على الاحتلال بطريقة صارمة
والتي تشق طرق النصر للأبطال وتعامل السنغاليين الذين يعملون معها وكأنهم
مرتزقة وتجعل منهم كلاب الحراسة للإمبراطورية الفرنسية .
إنها الجمهورية ومع ذلك تسلم البلاد إلى أصحاب الامتيازات الكبرى
حتى جعلوا من بلاد ميزوتاميا (يقصد جعلوا منها بلد القلاقل) وجعلوا
من بلاد الكونغو مقبرة كبيرة فسيحة تحت الشمس البيضاء .

كتاب القصص :

« وأخيراً ظهرت قصة أفريقيا لا تحق وراء معانيها فكرة مياسية » تلك كانت صيحة من القلب
التي زفرها ناشر فرنسي عام ١٩٥٧ وهو يقدم رواية الكاتب الكاميروني « منجويي » بعنوان بعثة
منهية وكان لهذه الفكرة وما تركت من صدى نفس ما يبررها خاصة وأن أول قصتين نشرهما هذا
المؤلف وهما « مدينة باغية » و « مسيح بومبا المسكين » وقد وقعها باسم مستعار « إيزابوتو » كاتا
قاسيتين على المستعمرين بوجه خاص . وأن قصة « بعثة منهية » لم تغير نهج المؤلف ولم تغير طريقته .

كما أن القصة الرابعة للكاتب نفسه (مونجوبي) وعنوانها الملك الذى حدث له معجزة « استمرت مطبوعة بطابع السخرية الذى ساد القصتين الأوليين فظل يسخر من أعمال الحضارة التى يقوم بها المستعمرون والبعثات المسيحية .

ولم يكن الكتاب الروائيون بأقل انخياز من الشعراء فقد ظل الكشف عن فضائح نظم الحكم الاستعماري هدف الكتاب ، فسارت على طريقة سلسلة بأكملها من القصص الأفريقي ، وهنا نسجل أن كتاب جزر الأنيل أول رسم الطريق أمثال « رينه ماران » الذى اضطر إلى اعتزال خدمة الحكومة الاستعمارية بعد أن ألف كتابه المشهور « باتولا » « إبان فترة إقامته في « أوبانجي شارى » .
وكثيراً ما تسجل الرواية الأفريقية التى تجعل هدفها « الكفاح » الأحداث السياسية المعاصرة لها ، وخير مثل ظاهر في هذه الناحية بالذات ما ظهر من روايات في أفريقيا الناطقة باللغة الفرنسية مثل رواية الكاتب « سامين عثمان » الأخيرة بعنوان « قطع الخشب » الصغيرة التى يملكها الله » وهذه القصة مهداة إلى النقبائين في أفريقيا السوداء وهى تحكى قصة إضراب عمال السكة الحديد بين دكار — النيجر عام ١٩٤٧ - ١٩٤٨ وهى قصة طويلة يتابع القارئ خلالها الطريق من مدينة إلى مدينة وعلى طول الخط الحديدى سير الأحداث السياسية أيضاً .

ويبدو هذا الكتاب وكأنه مجموعة تجارب لرجل نقابى له سوابقه في أفريقيا السوداء . كما تمرير سطوره جميع مشاكل العمل العال . كالسيطرة على المجاهدين الذين يعترهم اليأس في سرعة والنضام من مكان إلى مكان . ومساندة النقابات (نقابات الفروع المهنية وكذلك مراكز النقابات في الدولة الأوروبية الأم . وجباية رأس المال للنضام . كما تنبع يوماً بعد يوم ردود فعل السكان وتحفظ القدامى في بعض الأحيان وقلق النساء التى ستقطع نهائياً مساعداتهن . وفقدان الضمير عند بعض المنظرين . والتواطؤ بين أعضاء البرلمان السود والسلطات الدينية الإسلامية مع المستعمرين وأخيراً تنفيذ إلى معسكر المدو ونعى بها إدارة الشركة الاحتكارية التى تقوم بجمع موارى التعطيل الممكنة : كإثشاء نقابة منافسة ومحاولة مد زعماء الحركة بالمال كهبات ومحاولة مزيفة للمصالحة ومنع التجار السورين عمل سلفيات أو بيع بالأجل لعائلات المضربين الجوعى حتى ينهى الأمر في النهاية بالصدام الدموى بين حراس الأمن في المنطقة وبين السكان .

كما نجد أيضاً في قصة « برنارو داويه » بعنوان « كليمة » تصويراً لكفاح الثعابين والوطنيين الأفريقيين . فيسجن كليمة لأنه كشف عن فضائح وظلم الإدارة الاستعمارية في إحدى الصحف وحين قدم للمحاكمة أمام قاض أوربي يصفره كثيراً في السن فقد مرت بخاطره فكرة إزالة العنشاوة

عن عيني : كان هذا القاضي يبدأ حياته الرطانية في الفترة التي كان قد مر على كلييه ورفاقه ١٥ عاماً في العمل الوطاني على الأقل ولكن كان عليهم أن يظنوا في أسفل الدرج حيث مكاهم المخصص لهم .

وربما كان الكتاب الكلاسيكي (ذو الطابع التقليدي) في هذا المصمار الروائي هو كتاب للكاتب « بيتر ابراهامز » من جنوب أفريقيا فهو يحكي قصة ارتقاء طالب أسود ليتولى السطة في بلاده التي تسمى « الوحدة الأفريقية » ولكنه يتال لأنه خان القضية الوطنية الأفريقية بأن سلم إلى شرطة دولة مجاورة له اسمها « الدولة الجامعة » التي يبق فيها الأوروبيون السادة وأصحاب السلطان . سلم إليهم زعيماً أفريقياً آخر اسمه « مدهي » الذي كان قد طلب منه العون . وعلى هذا النمط كان ثمن المعونة المالية والتعاون الفني الذي يقدمه الرجل الأبيض . وتصور رواية ابراهامز تصويراً رائعاً جو الاجتماعات العمالية (حزب العمال) في لندن التي يدعى إليها الطلاب السود . كما أننا نعيش في هذه الرواية وسط العمل السياسي في الدول الأفريقية . ونرى فيها أيضاً طبع الصحيفة اليوم (التي نطلق عليها بالكاد كلمة صحيفة) وهي التي تعطى إشارة البدء بالإضراب . كما نلتقي خلال قراءة هذه الرواية بيدات السوق الأفريقيات اللاتي تترعنهن « سلبينا » واللاتي سيكونن لتأييدهن العمل القاطع في الحركة الوطنية وكأنن تأييدهن الورقة الراجعة لهذه الحركة . كما نتابع أيضاً عمل الرجل الأنثى الأسود « توم لاندوود » الذي مهد وأعد خلال سنين طويلة في مسكنه الحقم بلندن - مهد نظرية القومية الأفريقية وكيف عاد ليصبح وزيراً في أفريقيا ثم يزال من الطريق بلا رحمة . وأخيراً نلتقي بالطراز الحديد من موطن الإدارة الاستعمارية البريطانية ممثل في شخص حاكم جديد صاحب أفكار تحررية كما تقابل في هذه القصة الحكام والرعماء الأفريقيين المحافظين والذين لا يميلون إلى المخاطرة . وينتهي هذا الكتاب بقتل « أودومو » وهو وحيد في قصره المنيف ونراه قد جن جنونه حين يسمع في الليل دقات طبول الموت ويبقى في انتظار الموت كحيوان حبيس قبل أن يهوى تحت السكين العادلة . وأنها « سلبينا » التي أمرت بإعدامه هي التي كانت قد رفعتة إلى السلطة من قبل .

وقد أثارت رواية « ابراهامز » بعض المشاعر في ساحل الذهب عام ١٩٥٦ وذلك قبل الاستقلال بعدة شهور وكانت وكأنها نبؤة سيئة . ذلك للتشابه بين حياة « أودومو » وحياة نكروما في بدايتها ولم يلبث هذا التشابه أن استرعى الأنظار . فقد كان رئيس غانا الحالي قد استفاد حقاً من تأييد نساء بلاده اللاتي يسيطرون على جميع التجارة الصغيرة كما هي القاعدة في ساحل أفريقيا

الغربي . . وكان الزعم الغائى يستلهم الوحي من صاحب نظرية الوحدة الأفريقية الجامايكى « جورج بادموور » فقد استدعاه بعد ذلك إلى أكرا وجعله مستشاره منذ الاستقلال . . وما استرعى التفكير والتأمل شخصية لاندوود « وحى السير شارل ارون كلارك » الحاكم العام فى هذه الآونة كانت له أفكار متحررة تماماً كشخصية الرواية . وحتى الإنذار المزيف فى يوليو سنة ٥٦ قد صدر عن جريدة « ديل جرافيك » فى أكرا والتي أفردت فى صفحاتها نقداً طويلاً لرواية (بيتر ابراهامز » وقد ألحقت فى مقالها بالعبارة الآتية : إن العلاقة بأحداث ساحل الذهب والقصة واضحة (١) .

وفى أفريقيا الجنوبية قدمت التفرقة العنصرية ونظام الحكم الذى يطبق هناك كل هذا - وقد قدم الكتاب مواضيع لكثير من رواياتهم . وكانت غالبية الكتب التى ألفها « ابراهامز » تصور الجو الاجتماعى الذى تسوده التفرقة العنصرية . ومن هذه الناحية الاجتماعية فما لا شك فيه أن الكاتب الروائى « ريتشارد رايت » من جنوب أفريقيا فى مؤلفاته مثل « خادمى وطريق الرعد » و« هذه الحرية » قد عبر عن هذا الإطار الاجتماعى . ويعتبر « ريتشارد رايت » فى نواح كثيرة كاتب أفريقيا الجنوبية الاجتماعى فقد كتب مجموعة من الكتب منها « خادمى » الذى تحدث فيه عن الحرية . كما أن قصة حياة الكاتب « خرقيل مغاللى » بعنوان « اهبط إلى الشارع الثانى » تعتبر من نفس المعنى الاجتماعى حيث نجد فيها نموذجية حياة زنوج أفريقيا - وهى دوريات الشرطة بحثاً عن الحواشى التى تباع فيها الكحول المقطرة بطريقة غير قانونية . وإخلاء سكان حى من أحياء الزنوج بالقوة ، ويتخلل هذا العنف إطلاق الشرطة النار على السكان فيقتلون صبيّاً .

كما يقدم « خرقيل مغاللى » هذا فى كتابه « صورة أفريقيا » إحصاء طويلاً للأدب الزنجى الذى يمتج فيه الكتاب على الأوضاع القائمة فى جنوب أفريقيا . فهو يذكر اسم الكاتب « ابراهامز » جنباً إلى جنب اسم الكاتب الشاعر « هـ .ى . ادلومو » فقد عبر هذا الأخير عن يأس بنى جنسه المضطهد فى قصيدته المطولة بعنوان « وادى الألف تل » أو وادى التلال الألف » .

و« ألفريد هوتشينسون » أحد المهتمين فى قضية الحياة المشهورة والذى يفضح فى كتابه « الطريق إلى غانا » الجو الحاقق الذى دفعه إلى أن يهجر بلاده ويختار منفاه . وهناك كتاب قصص - وقصص قصيرة أمثال « ريتشارد ريف . واليكس لاجوما وبلوك موديزان » وقد كتب

(١) هذه القضية أقيمت ضد حوالى مائة من المثقفين الأفريقيين لا للدب سوى أنهم فى خلاف مع نظام الحكم الذى يقضى بالتفرقة العنصرية وانتهت القضية فى نهاية الأمر بلا نتيجة فقد برى جميع المتهمين وكان آخرهم فى عام ١٩٦١ وقد بدأت هذه القضية عام ٥٦ وإذاً فقد استغرقت وقتاً طويلاً جداً .

ونشر هذا الأخير قصة حياته بعنوان « ابنتي على صفحات التاريخ » .

كما أن رواية « تولى ياباني » وهي ابنة مدرس زنجي من قبيلة « كسوزا » هذه الرواية بعنوان رسمت بالألوان) وهي أيضاً وصف مرير لنظام حكم التفرقة العنصرية . وقد اقترح ناقد في الصحيفة الأسبوعية الإنجليزية « الأيزرفر » حيث تحدثت عن هذه الرواية فقال : إنه كتاب يجب على مستر فيرفورد أن يقرأه .

ومن غير شك فإن استغلال العامل أو الفلاح الأفريقي عن طريق نظام الحكم كان موضوع روايات كثيرة . وفي حقيقة الأمر أن أول كتاب للكاتب « منجويي » بعنوان « مدينة باغية » يدور حول حادثين متعلقين بالاقتصاد : - -

صاحب عمل أوروبي لا يعطى عماله الزوج حقوقهم . ثم فلاح أفريقي شاب لا تسمح له الإدارة ببيع محصوله من الكاكاو . ثم يقتل صاحب العمل الأوروبي خلال مشاجرة من عماله الذين حصروا ليطالبوه بأجورهم . والمذنب هو العامل كوميه وتدفع الشرطة للبحث عنه ويساعده في هروبه الفلاح الشاب « باندا » فيعتدى البوليس على الفلاح بالضرب مرة ثانية وقد أوسعه ضرباً في المرة الأولى لأنه احتج على قرار مصلحة المراجعة للمحاصيل التي أعلنت أن محصوله من الكاكاو غير صالح للاستهلاك وحين أن هذا المحصول ثمرة عمل وعناية لمدة سنة كاملة وأن كمية الكاكاو تربو على المائتين من الكيلوجرامات .

ولعل « باندا » ارتكب خطأ واحداً ذلك أنه لم يقل أن « يتفاهم » مع المشرفين على هذه العملية (عن طريق الرشوة) .

كما يفصح « بنيامين مايتب » في كتابه « أفريقيا إنا نجهنك » يفصح استغلال التجار البيض للفلاح الأفريقي - ولكن بطل قصة « سامبا » يهاجم أيضاً الحيل القديم من صغار المزارعين الزوج والذين يقبلون النظام الاستعماري بطريقة سلبية . وقد أثار الكاتب الكاميروني « جان ايكيل ماتيا » قضية السخرة في الكاميرون في كتابه « (إنها أفريقيا) التي كانت تمارس في الكاميرون بين الحريين . فقد أحاطت ببطل الكتاب جميع المتاعب من سخرة وضرب وسجن لا ذنب سوى أنه رفض أن يخدم الإدارة الفرنسية بعد رحيل الألمان الذين كان قد اطمأن إليهم واستطاع معهم مواصلة دراسته حتى أنه بدأ حياة عملية متألفة انتهت حين هزموا . وفي كتاب « وطني » شعبي الجميل « للكاتب سميين عثمان نجد أن البطل « عمر فاي » يهاجم احتكار الشركات الأوروبية التي تشتري محاصيل الزراعات الصناعية بشمن بنحس عن طريق تأسيس جمعية تعاونية ويصدم حين لا

تَكَثَّرَ له الإدارة بل ويغتاله مأجورون من الشركات التي أزعجها أن رأت امتيازاتها مهددة . . كما يوحى السجن والضرب والتعذيب من رجال الشرطة للمقبوض عليهم والإذلال العنصرى كل ذلك يوحى بمواضيع للرواية الأفريقية التي تهدف الكفاح . فى كتابين لقرديناند ايونو يسجل أن السجن كان نهاية مفعمة ، وفى كتاب « حياة خادم » حيث يتهم الخادم الشاب « توندى » بسرقة لم يرتكبها - فموت من الإعياء والعذاب من معذبه إبان استجوابه فاضطروا أن يدخلوه المستشفى - وحين حاول الهرب منه نراه يموت . أما فى قصة « الزنجى المعجوز والوسام » فإن النتائج أقل خطورة . إذ يقبض على « مكا » فى نفس اليوم الذى يمنح فيه وسام الاستحقاق لسلكه النموذجى . فيلقى تعذيباً من الضرب بالسياط قبل أن يتعرفوا عليه فى آخر الأمر .. ولكنه قد فقد إلى الأبد ثقته فى البيض وصدقهم .

وإن أشنع مناظر الضرب والتعذيب يروها الكاتب « ميوجا جيكاردا » لأنه عاشها بنفسه فدونها فى كتابه « بلاد الشمس المشرقة وصور من الحياة قبل ماوماو » يروى الكاتب كيف أن ضابطين من الأوروبيين ومعهم جنود شرطة أفريقيون يستجوبون ثمانية من الزنوج قبض عليهم للتحقيق فى حادث سرقة . لقد كانت ضربات السياط المتعددة الألسنة تقع على أجسادهم كالطرر المنهر ولم يكف المعبذب بذلك ، بل كان هناك تعذيب أقسى يتناول الأعضاء التناسلية . وقد أطلق سراح الكاتب نفسه لأنه حدث صغير لم يعمل له الختان بعد .

وآخر الشواهد على السجن وعلى معسكرات الاعتقال فى أفريقيا القصة التى يروها الكاتب نفسه والتي يقصها الكاتب « جوزيا مقامبى كارويكى » الذى عرف أربعة عشر معسكراً بقى بها سبع سنوات على التوالي ، أى من عام ١٩٥٣ حتى ١٩٦٠ بتهمة الميل نحو حركة الماو ماو . فهو يقدم لنا صورة بشعة ومؤلمة عن المرشدين التابعين للشرطة وكيف أنهم يلبسون جلباباً ذا قطنسوة تحفى وجوههم عدا العينين ، وهم الذين يصعبون المعتقلين على فئات منهم من لا يرجى اكسابهم مطلقاً ومنهم من يعتقل حتى يمكن اكسابهم ومنهم من يرد له اعتباره . كما يصور الوسائل النفسية التى تستخدمها إدارة السجن فى التعذيب . وكان هؤلاء المرشدون من الأفريقيين الذين يستهويهم الكسب المادى أو الذين يحبون أن يعيشوا فى هدوء بعيدين عن العقوبات فيخدمون الإدارة نظير ذلك كما يصفهم « كارويكى » أو كانوا من الخثالة ذوى الحسة والدناءة - كما أن الكاتب يحكى عن سوء المعاملة التى يلقاها المساجين والتي كانت كثيراً ما تؤدى إلى الموت مثل ما حدث فى معسكر « هولاء » حيث كان عدد الضحايا أحد عشر ضحية .

ويحدثنا «كاربوكي» دون مبالغة عن الضرب بالعصا والذي يعقبه بعد ذلك الحس بالرزازة . وهذا ما حدث له في كل مرة كان يبعث فيها سراً بخطابات إلى أعضاء البرلمان البريطاني من حرب العمال مثل «باربارا كاسل» لكي يطلع الرأي العام البريطاني - وقد سببت مناقشات عدة في البرلمان الإنجليزي . ويقرر مؤلف «ماو ماو الحلبية أن ثمانين ألفاً من سكان كينيا عرفوا المعسكرات التي أقامتها السلطة الإنجليزية لمحاربة الحركة القومية .

وأخيراً فإن مأساة حياة الزنجي تحدث عن نفسها بتعداد أنواع الإذلال المهين الذي يتعرض له الزنجي بحالة مستمرة كالإهانات والشتائم والضرب الذي يفدقه المستعمر في سرور على الخادم أو الموظف - هذا بالإضافة إلى بعض التزوات الصادرة عن بعض الحكام الذين يشعرون بالملل والضيق في هذه البقاع ، فيتخذون من هذه التزوات مادة تسلية يتحمل مغبتها السكان ، مثل ذلك التزوات التي كان يعمنها موظف بلجيكي إذ استأنس فهدأً دربه على إحقاق الأفريقيين الذين كانوا يعيشون في منطقة نفوذه . جاء هذا الوصف في قصة حياة «مويلا»^(١) وهناك ظاهرة صغيرة غير أنه برغم بساطتها وسذاجتها إلا أن دلالتها واضحة ، وهي قصة الصبي الصغير الذي لم يرق في حياته زنجياً . نراه يمسح يده بعد أن يصفح «فارا» الأسود بطل كتاب «سراب باريس» للكاتب «عثمان صومي» .

(وفي كتاب «بشرة سوداء وأقنعة بيضاء» للكاتب الأنتيلي «فراز فانون» نرى تحليلاً سهواً للفرقة العنصرية ، فهو يستخدم في تحليله هذا رأى الفيلسوف الألماني «هيجل» الذي يقول : مخلوق من أجل مخلوق آخر يستخدم الكاتب قانون هذا المفهوم ليبدأ به تحليله في حين أن بول سارتر يقدم له عناصر هامة ليجعلها موضوع المقارنة . فيكتب سارتر بأن اليهود قد تركوا أنفسهم ليمثلهم الغير على صورة معينة وهم يعيشون في خوف من ألا تمشي أفعالهم مع هذه الصورة . وهكذا فإننا نستطيع أن نقول إن سلوكهم غالباً ما يكون صادراً عن قرار معين اتخذوه في قرارة أنفسهم . ولكن «فانون» يعارض هذا الرأي فيقول : يمكن لليهودي أن يجهل يهوديته . فهو ليس كما يظهره الواقع - إنه يأمل ويتنظر وأن أعماله وسلوكه تتقرر في آخر الأمر . إنه أبيض وأن له بعض الملامح المميزة فإنه يمكن أن يمر دون أن يلتفت إليه أحد . إنه يتسنى إلى عنصر يجهلون أكل اللحم

(١) من مذكرات كنفولي للكاتب «فراشكو مويلا» ص ٢٥٠ هذا الكتاب من الكتب النادرة جداً إن لم يكن الكتاب الوحيد لمؤلف أفريقي باللغة الأسبانية . والكاتب من قبيلة آرانوية بالمنطقة الشرقية الكونغو البلجيكي سابقاً .

البشرية . يالها من فكرة أن يلتمهم المرء أباه . إنه يستحق ذلك . لقد كان عليه ألا يكون زنجياً حقيقة أن اليهود موضع اختبار (ما عسى أقول) إنهم بطاردون ، وربما يقتلون ويلقى بهم في النيران ، ولكن كل ذلك مجرد قصص تروى عائلاً . إن اليهودى غير محبوب منذ اللحظة التى ينكشف فيها أمره . ولكن الوضع معى غير ذلك بل ومغاير تماماً . فإنه لا يسمح له بأية فرصة . إن القرارات تفرض على دون إرادتى - إنى لست عبداً لفكرة الآخرين عنى بل أنا عبد للوئى . ثم يضيف « قانون » قائلاً : إذا كانت دراسات سارتر عن حياة الآخرين صحيحة (نذكر ذلك بالقياس إلى ما وصفه في « المخلوق والعدم » من أن الضمير ملك للغير فإن تطبيق هذه الدراسات على الضمير الزنجى يكون خاطئاً . ذلك لأن الأبيض ليس المخلوق الآخر وإنما هو السيد الحقيقى أو الخيالى له .

اليهود الزنوج :

في خضم هذا الأدب المعارض تظهر رواية من أعجب الروايات بامضاء له وقع وتقييم اسم زنجى هى « لوبا جوليا - قصة لأفريقي غير متحضر » فبالرغم من أنها تقدم على أنها قصة تاريخ حياة إنسان إلا أن الذى لا شك فيه أن الجزء الأكبر من هذه الرواية جاء عن طريق الخيال المذهل . ذلك لأن أفريقيا التى يضعها « لوبا جوليا » بالرغم من المراجع الجغرافية الدقيقة التى يرجع إليها ، فإن وصفه لأفريقيا غير مطابق للواقع . حتى أننا لتساءل حقاً عما إذا كان هذا المؤلف زنجياً حقيقة ذلك لأن جميع الاحتياطات التى اتخذت للبرهنة على ذلك وهى صورتان شمسيان للكاتب وكذا صور وأختام جواز سفره وبطاقة خدمته العسكرية ، كانت كلها تثير الشك على النقيض . فالكثير من فقرات الكتاب لا يمكن تصديقها مطلقاً مثل الصلة الخرافية في الفيض على البطل ومرشده بواسطة الأقرام آكلى اللحوم البشرية الذين صنعوا من أعماخ ضحيتهم نوعاً من « العصيدة - العجينة » بعد أن أذابوا جماجمهم - ومع ذلك فإن هذا الوصف لبعض العادات القبطية البشعة ليس الهدف منها تجميد الحضارة الأوروبية عن طريق التناقض - ويدافع « لوبا جوليا » حين تأتية الفرص عن بعض العادات الأفريقية كمادة تعدد الزوجات - ثم هو يحكم على المجتمع الأوروبى دون أى تسامح فيقول : إنه تعلم الكذب والحيث في أوروبا . كما تفضح فصول الكتاب التى تدور أحداثها في أوروبا وأمريكا النفرقة العنصرية . ويوجه اللوم للغرب إذ جعل منه شخصاً موزعاً بين جنسين : الأبيض والأسود فهو مفلوظ من الأفريقيين ومن الأوروبين على حد سواء . ولكن غرابة هذا الكتاب تكمن في مجال آخر : إذ يؤكد أنه فرد من قبيلة يهودية سوداء هائمة

على وجهها في أفريقيا الغربية على مسافة ستمائة ميل شمال مدينة آيومي كلافى ، التي كانت عاصمة داهومي (وهذا البيان خاطيء ، فإن العاصمة القديمة للملك داهومي هي آيومي فقط . وأن آيومي كلافى موجودة في داهومي حقاً ، ولكنها قرية صغيرة قريبة من البحيرات وتقع على شاطئ بحيرة كوتونو قريبة جداً من الساحل ، بينما تقع آيومي على مسافة حوالي مائة كيلومتر داخل الأراضي وبعيدة عن البحر) . ويسرد ه لوبا جولاه تاريخ قبيلته فيروى كيف أتت اليهودية إلى بلاده المجهولة في وسط أفريقيا بعيداً جداً جنوب تمبوكتو حيث الوثنية والوحشية ؟ في حوالي عشرين قرية يوجد ألفا قسم جميعهم من السود ويعتقدون أنهم من أصل يهودى ويطلقون على أنفسهم اسم « بنى افرايم » ويسميهم بقية السكان المحليين « ايمو بوكوايم » أو الشعب الغريب . ويملك شعب (بنى افرايم) نسخة من التوراة العبرية مكتوبة باللغة الأرامية فقد أحضروها معهم حين وصلوا هذه المنطقة منذ أكثر من ألف وثمانمائة عام .

وهي ليست مكتوبة بالمداد وإنما منقوشة على ورق البردى بواسطة الحديد المحمى (الأحمر) . ومقدمة الكتاب ذاتها نموذج للحرج (فإن كاتب المقدمة الذى لم يشأ أن يفصح عن اسمه يعترف صراحة بأن مؤلف الكتاب استخدم الخيال والحديعة في كثير من الأحوال) كما أن الكتاب يتحدث على بعض الاستشهاد من دائرة المعارف البريطانية ومن كتاب موريس فيشرج الذى عنوانه « اليهود - دراسة تفصيلية » وهو عبارة عن تقصى وجود اليهود في أفريقيا ، ويتعلق بعمليات إسكان الإسرائيليين شمال الصحراء الكبرى وكذا إسكانهم في منطقة مزاب . ويهود أثيوبيا من قبائل « افلاشا » أو يهود ساحل لوانجو . وجالية اليهود الزنوج في لوانجو مثل جالية اليهود في ساوتومي تنحدر من سلالة أطفال يهود إسبانيين نقلوا إلى أفريقيا بعد أن أبعدها بالقوة أيام محاكم التفتيش . وقد لجأ بعض اليهود الذين طردوا من إسبانيا إلى البرتغال حيث أرسلهم الملك جاك الثانى إلى أفريقيا ومنهم ألف طفل أرسلوا إلى جزيرة ساوتومي عام ١٤٩٣ . أما بالنسبة لقوم فلاشا في أثيوبيا فإنهم يزعمون أنهم من سلالة (ميلينيك) ابن سليمان وملكة سبأ فإنهم لا يعتبرون أصلاً من اليهود الشريط الشمالى من الصحراء الكبرى فإن كتاب تاريخ الفتاش يشير إلى وجود أقلية إسرائيلية عند منحى نهر النيجر وكانت «ازكيا محمد» أحد أباطرة سونراى قد أحضر بعض البساتين اليهود من بلاد المغرب لتحسين الإنتاج الزراعى . وتعرف أخيراً أنه من بين النظريات العديدة التى فرضها الباحثون لتوضيح أصل قبائل « البيل » أنهم يتبعون إلى الإسرائيليين . ينادى بهذا الرأى ويؤيده « دولانوس » ووفقاً لرأى هذا المؤلف تكون قبائل البيل من نسل يهودى أبعدها من مصر بأمر أحد ملوك البطالسة فأتجهوا في

أول الأمر إلى برقة ، ولكن الرومان اضطهدوهم فهاجروا إلى فزان ومن هناك ذهبوا إلى منقطة «أبير» ثم إلى منطقة ماسينا . غير أن معظم الباحثين الأخصائيين يعارضون هذه النظرية معارضة قاطعة ، ومع ذلك فإن «جرمين ديرتلن وهميات يا» قد كشفت بعض تلميحات إلى سليمان في النصوص الدينية التي يتعامل بها قسوسة قبائل «الليل» وقد قام (روجيه موني) «الأستاذ بجامعة السربون بضبط وتمحيص هذا الموضوع في مقال له بعنوان «اليهودية واليهود وأفريقيا الغربية» . وقد ظهر كتاب «لوباجولا» الذي يسرد فيه تاريخ حياته عام ١٩٣٠ في لندن وترجم إلى اللغة الفرنسية ونشر في باريس ١٩٣٢ تحت عنوان «لوبا حولاً قصة متوحش أفريقي كتبها بنفسه» وسواء أكتب هذه القصة كاتب أسود أم لم يكتبها فإنها قصة لم يعشها مؤلفها بسبب أحداثها المثيرة التي هي من نسج الخيال . ومع ذلك فإنها ليست قصة مثيرة فحسب بل إن هذه القصة بما حوت من خيال ووصف لأفريقيا مشكوك في صحته في غالب الأحيان إلا أنها تعتبر دليلاً ، فقد أراد الكاتب أن يجمع في شخصية رمزية واحدة المصير النفسى لجنسين مضطهدين هما الزوج واليهود^(١) .

صورة الأوروبي :

ما هي الصورة التي يقدمها الكتاب الزوج لقراءهم عن الأوروبي :-
 إن هذه الصورة غالباً ما تكون كتيبة أو كاريكاتورية : فالمتعمرون سكارى وفاسدون ولا أمانة عندهم وفيهم شراسة وفي خلقهم عنف كرؤساء شرطة (مأمور) وفيهم دناءة ونخسة أيضاً ، أما رؤساء الإدارات فقوم مزهوون بأنفسهم إلى حد إثارة السخرية ، يمثل هذه الصفات جرى وصفهم في روايات «فرديناند ايونو- وجان مالونججا - ومونجويي» .

كما ظهر أيضاً وصف الأوروبي الجذاب المحبوب فنجد «بيير» في كتابه (بلادى شعبي الجميل) الذي يكتب لطمع الشركات الأوروبية الكبرى و «تارج» في كتاب «كلميه» . نراه في ختام الكتاب يحتمه بخطاب أحمى - وكذا المدرس «سالفان» الذي يغضب على قومه لاحتقارهم السود وذلك في كتاب «حياة خادم» وكذا المفتش العام في التعلم الذي ينتزع «مايكي» من أيدي الشرطة في كتاب (قلب امرأة آرية) وفي كتاب الطالب الأسود للكاتب «آلك لوبا» فإن مدير الإدارة «بارج» هو الذي يحضر ليتخذ البطل من الشقاء الذي يعانيه في باريس . وعند الشيخ

(١) يؤكد فانون في كتابه (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء) حقيقة واضحة وهي : أن من يكره السامية يكره

الزوج .

«حاميد وكان» في كتاب (المغامرة الغامضة) نجد أن المقصود هي عائلة راعي الكنيسة . وأخيراً نجد «ثوباب» هو الرجل الأبيض ذو الصفات الرقيقة القلبية وهي صفات فريدة في نوعها - وهذا انضم إلى جانب المحاربين المشهورين في فولكلور شعب «مانداناغ» كما ينقله لنا المدير السابق للبلدية الأفريقي «كينتا فوديبا» وهو الآن وزير في غينيا - نقله لنا في كتابه «أشعار أفريقية» .
أما بالنسبة إلى «أولمب بيل كونيوم» في كتابه بعنوان «الفخ الذي لا نهاية له» فقد أراد أن يجعل عرضه للشخص الأبيض متوازناً أي بين بين فإن المشرفين في السجن (سجن داهومي) حيث يسجن بطل كتابه ، نرى أحدهما شقوق عادل وليس به عداوة عنصرية أما الثاني فحدود التفكير سريع الغضب ويؤمن بالعنصرية يحقر السود .

وكما فعل سيزير وسنفور يطرح الكاتب الروائي من قبيلة بيل «الشيخ حميدو كان» بعيداً عن قلبه الحقد الدفين على الرجل الأبيض مع أن هذا الحقد عاطفة دنيئة في قلبه .

وأما فرانز عاتون الرجل الثوري الحقيقي والذي انضم إلى جانب جبهة التحرير الوطنية فقد سيطر على شعوره بالألم والضغينة فيقول في كتابه «بشرة سوداء وأقنعه بيضاء» : ليس من حقّ أنا الرجل الملون أن أمشي وأن يتلور الشعور بالذنب عند الرجل الأبيض تجاه الجنس الأسود وماضيه . كما أنه ليس من حقّ أن أشغل بالي بالوسائل التي تمكنني من أن أطأ مواضع الفخر التي كانت للسيد القديم (الأبيض) كما أنه ليس من حقّ ولا من واجبي بأن أطلب بالتعويض لأسلاف الذين استعبدوا .
وبعيد إلى ذاكرتنا ما قاله في خطابه عام ١٩٢٧ في المؤتمر الدولي في «جلاند» بسويسرا عن ختام قصة القمع الرهيب الذي قام به الجيش الفرنسي ضد ثورة «للطورق» وقد كتب هذا في كتابه بعنوان «حشائش السافانا الحمراء» كتبها يقول : لقد فهمنا الآن أن الشر الذي قاست منه بلادنا لا يجب أن ينسب إلى فرنسا عامة بل إلى بعض الفرنسيين .

وامتشهد جاك هولت عن الصراع النفسي الذي يقوم في نفس الشاعر نحو الرجل الأبيض ونحو الأجانب عامة الذين بذروا الفراغ . امتشهد بيتين من الشعر للشاعر «ميران بوجيني» .

إذا ما حمل المرء حقداً في نفسه

فليس من اليسر القضاء عليه

وحتى «مامادو جولوحو» وهو أحد المتطرفين في عدائه للإدارة الفرنسية لم ينس مديح بعض الموظفين الاستعماريين ، فقد أطراهم إطراءً حاراً وذلك في قصته المحزنة والتي تتضمن تاريخ حياته . فقد مدح كلاً من ناظر مدرسة ولبام بوتني والذي رمز له بالحرفين م . ب (ومن المحتمل أن يكون

شارل بيار) والطبيب الذى أسس مدرسة الطب في دكار والذى يصفه الكاتب دون أن يذكر اسمه بأنه (خادم فرنسا الحقيقي في أفريقيا).

ولقد كانت الحركة الوطنية في بدايتها مهمة بالتغلب على أحقادها. حتى أن الدكتور «أجريه»^(١) وهو أحد الأوائل المثقفين الأفريقيين من المستعمرات البريطانية في الساحل الغربى وهو صاحب الرأى الملفت لتنظر في ضرورة التعاون بين الأجناس. فنراه يقول: في الموسيقى فإنه لا يمكن استغناء الأبيض عن الأسود في كتابة النوتة الموسيقية فالمثل يجب أن يتفق الأبيض والأسود معاً. ومهما بدت هذه الصيغة في شكل ساذج فإنها غدت وأوحت كل الجيل الأول من الوطنية الأفريقية في الغرب الأفريقى البريطانى بين الحربين العالميتين.

ولكن روح النقد الأفريقى لا تسير في اتجاه واحد. فإن رواية «آك لوبا» بعنوان الطالب الأسمر ترسم لوحة لا مبالغة فيها بل حقيقة لحياة الطلبة الأفريقيين.

كما أراد «فيل دابوسيكو» أن يحدو مواطنيه في كتابه بعنوان «أقلام وصور» فقد كان هدف نقده هو الرجل المنظور المزيف مثل هذا النرجوزى النبيل الأسود. إن هذا النصف من الناس منتشر جداً. إنه أسمى تماماً فهو لا يعرف القراءة والكتابة، ومه ذلك فهو يفرض الاحترام عن طريق مشيته وهيئته. إنه مشترك في جمعية حقوق الإنسان والمواطن. كما أنه مشترك في الجريدة الرسمية بالمستعمرة أو في الصحيفة المحلية التى يصدرها حزبه. ويجب أن يمدد على مقعده الطويل وأن يقرأ له أحد الناس هذه الصحيفة. لذلك هو يعلم الأخبار من المصادر العليا. فيعرف مثلاً هزم عبد الكريم وكيف انتصر حالاندوبوف على الأستاذ لامين جواى كما يعرف ماذا يضمه النجاشى في نفسه لينتقم من موسولبنى. كما أنه يفعل لأن فرانكو على أبواب مدريد. ويعرف جميع النوايا التى يكنها السيد فانسان أوربول. وحين يكون مهتماً في عمل من الأعمال فإنه يدعو واحداً يخضره معلوماته مباشرة من كتب القانون، فكثيراً ما يشدق بالقانون وبحقوقه. وإن خطاياها مكتوباً على الآله الكاتبة وصادراً عن نائب من النواب أو على جنرال أو حتى بطاقة شخصية للزيارة تثيره لدرجة يفقد كل ثباته. إنه يتجنس بالجنسية الفرنسية أو هو يعمل لكى يصبح كذلك متجنساً بها، وفي نظير ذلك فهو يضحي بكل ثروته كما أنه أصر على ألا تتزوج ابنته إلا من رجل مثقف. وهكذا يقضى حياته بين الطعام الجيد والفراش الوفير في خيلاء حقاها بعيدة كل البعد عن الثقافة.

ويند «جوزيف أوونو» بتقاليد أفريقية قديمة ولو أنها أصبحت أكثر ضرراً في هذه السنوات

(١) وهو أستاذ كورمى نيكروما.

الأخيرة أكثر من ذى قبل . يتدد بذلك في كتابه « بعنوان العمة بيلا » وضمن هذه التقاليد مشكلة المهر « الصداق » فيقوم المؤلف بتحقيق مستفيض عن حالة المرأة كما يبحث أيضاً حياة العاهرات ثم يبحث النتائج الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن ارتفاع الصداق ارتفاعاً خيالياً . ثم يقص في الجزء الثاني من الكتاب قصة البطلة التي صار اسمها عنواناً للكتاب وهي قصة حدثت من قبل عام ١٩١٤ لفتاة صغيرة وعد بالزواج منها زوجها حين كان عمرها ستين فقط ، وحين مات هذا الزوج صارت كسلعة في فراش أزواج متعددين الواحد بعد الآخر ، وهدف هذا الكتاب في اختصار هو الدافع في سبيل تحرير المرأة الأفريقية كما يهاجم التقاليد القديمة والعادات الحالية .

المدينة :

ظلت القصة والرواية « غير المناهزة » يحددها لدرجة كبيرة الموقف الاستعماري . وما يسترعى الانتباه مسألة المدينة ، وهي الشىء الذى أنشأه الأوروبي في أفريقيا ، قد أصبحت الإطار الذى يدور خلاله الكثير من الروايات . فالمدينة بكل ما فيها من مسرات وإغراءات هي التى يكشفها (كريم) بطل الرواية التى تحمل هذا الاسم والتي كتبها « عثمان موسى » وهي تحكى أن « كريماً » هذا رجل مثقل بالديون بسبب أنه أراد أن يبر عبثاته . فهجر دكاكرا وخلع رداءه الأوروبي لكي يرتدى زى بلاده التقليدى ليعود إلى قرينته . والمدينة هي التى تترع من الفلاحة الصغيرة ميمونة خطيها ، ورد ذلك في كتاب « عبد واللاى سادجى » .

إنها المدينة بما فيها وبمن فيها هي موضوع الرواية الأولى للكاتب النيجيرى « سيربان ايكويسكى » بعنوان « أهل المدينة » ويحكى فيها قصة محنة صحفى أفريق شاب وسط خصم المدينة الراخر الصاحب حين يبحث كثيراً وبدون جدوى عن مسكن يحس فيه الاستقرار البرجوازى الذى حالت دونه مغامراته الغرامية العديدة . كم هم محرن أن تعيش في هذه المدينة الخائقة ، إنه وصف دقيق موفق لم يفته أن يصف الأكواخ والمساكن القذرة في أحياء مدينة لاجوس . هذه المساكن المقامة من الصفائح والحش وممع ذلك فهي ملئق ساحر .

كما أن مدينة (تونجو) مختلفة تماماً وهي التى ورد وصفها في رواية « مدينة باغية » للكاتب « موبجوبى » فهي مدينة كلها كفاف مرير وخداع . كما أن المدن التى ورد وصفها في آخر مؤلفات « آموسى توتولا » بعنوان سبما العفريت في الغابة المظلمة . هذه المدن كانت ملئية بالقسوة وهذه القصة تحكى قصة ابنة لامرأة غنية جداً تسمى سيميا - وسيميا هذه راقصة شهيرة معبودة الجماهير

ولكنها تريد أن تهجر موطنها حيث الأدغال المحدودة الأفق لكي تحس الفقر والعوز والعقاب . إنها تهجر الموطن الأصلي لها وترحل وأثناء ترحالها تمر بأماكن عجيبة حتى أنها نقلت بأعجوبة وبمجزأة من مخلوق مشوه يسكن الغابات وتدفع ثمناً لتزويتها كطفلة مدللة آلاف التجارب والاختيارات . . . والمدبتان اللتان قابلتها في طريقها كانتا لها أشد عداوة . . . ففي المدينة الأولى ترى رجالاً بأجسادها يقع ملونة بألوان مختلفة وأفكارهم خاطئة لدرجة جعلت «سيميا» تهرب منها حتى تنجو من الموت . وفي المدينة الثانية تتزوج سيميا من نجار ولكنها تضطر لتضحى بطفلها الحديث الولادة في سبيل ظمأ أحد الآلهة الذي لا يرحم (إن البندة الخاصة بالمدينة التي سكانها متعددو الألوان هي رمز أو تلميح للسياسة النادرة في مؤلفات الكاتب النيجيري هذا .

وهكذا أصبحت المدينة رمزاً في الأدب الأفريقي ، فهو رمز للاحتكاك والاتصال بالغرب بعبويه وجاذبيته . وإن الصدمة التي نشأت عن غزو الحضارة الأوروبية للمجتمع القبائلي في أفريقيا قد اتناؤها الكتاب بطريقة قاطعة محددة . وقد نجح الكثير منهم في أن يجعلوا منها موضوعاً جيداً لروايتهم . فزرى أولاً الكاتب النيجيري «سينوا آشي» في كتابه «أشياء تقع من جانبنا» فهو عبارة عن قصة انهيار البناء الاجتماعي في قرية «ايو» تحت وطأة ضغط الحكام المستعمرين والمبشرين . وكذا انتحار البطل «أكونكوو» بعد أن شارك في إحراق مدرسة للمبشرين وبعد أن قتل يديه أحد مندوبي الإدارة البريطانية . هذا الانتحار هو بمثابة اعتراف منه بعجزه عن إيقاف عجلة التاريخ كما أنه رمز لآخر حركة تمرد قام بها ضد نظام الحكم الجديد . إذ أنه يفضل الموت على قبول ذلك النظام .

والرواية الثانية لهذا الكاتب بعنوان «لا سبيل للراحة بعد» هي قصة فشل . . . فشل حفيد «أوكونكوو» التي تقف في سبيله آلاف الصعاب . فهو شاب أفريقي مثقف نال عديداً من الشهادات العلمية يريد أن يتزوج من أفريقية دون مستواه ، ولكن عائلته تترص على هذا الزواج متعلقة بأن هذه الزيجة غير المتكافئة متجلب عليه العار .

وفي كتاب «غضب الأسلاف» يقص الكاتب «ارشيبالد حوردان» من جنوب أفريقيا قضية رئيس من رؤساء القبائل التقليدية . هذا الرئيس منطور بعض الشيء - فالكتاب يحكي قصته قصة زواجه وكيف أنها يريدان إدخال الحضارة إلى القبيلة ولكن مشروعها يلقى مصيراً مؤلماً . وهكذا نرى أن القصص والروايات والشعر الأفريقي كانت كلها في طليعة المعركة السياسية وكان الاقتناع بذلك قوياً لدرجة أن مجلة «الوجود الأفريقي» هاجمت الكاتب «كامار لاي» مرتين لأنها

ترى أن رواياته لا تلتئم ومفهوم الكفاح ضد الاستعمار . وقد كتب المعلق في مجلة «الوجود الأفريقي» يقول :

فيما يخص كتاب «الطفل الأسود» فإن «لاي» كان يكتب وقد أغلق عينيه عن عمد عن رؤية الحقائق المؤلمة التي عنوا دائماً بعدم الإفصاح عنها وعرضها على الجمهور . فهذا الكاتب الغيبي وهو مثل أسود ورفيق في الصغر وكنا نعلم عنه أنه قوى الملاحظة متيقظ دائماً لم يلاحظ شيئاً سوى أن أفريقيا هادئة وجميلة كأم كلثما أمومة ؟ وهل يمكن أنه لم يشاهد مطلقاً أى عمل جائر ولولمة واحدة صدر عن الأداة الاستعمارية . ٤

ولم تكن مجلة الوجود الأفريقي أقل جدية في ملاحظاتها على كتاب «فضرة الملك» فقد نقد الكاتب طريقة إهداء الكتاب للمندوب السامي لجمهورية أفريقيا الغربية الفرنسية وندد بذلك فقد رأى أن مجرد الإهداء عمل يثير السخرية ولو أنها خطأ بسيط . ثم استرسل الناقد في نقده : مها فعل كامارا ومها غضب ، فإن مؤلفاته لن تستطيع أبداً أن تجد لنفسها مكاناً خيراً من أعلى رف من رفوف الأدب الكريه المتبذ وأن هذه المكانة لأدبه يفهمها جيداً جميع النقاد المحترفين الذين يتملقونه وكأنه مراهق شاب . اعترافاً منهم بحمليه وصنيعه لهم ، لأنه هو الذي يرشدهم إلى الوسائل السرية الرهيبة ليتقربوا من أصحاب السطوة (من المستعمرين) ويسمح لهم بأن يرصدوا عيونهم المتطلعة على ثقب الأبواب للأكواخ ليتجسسوا على ساكنيها من الزنوج غير الموالين للحضارة والمدنية الأوروبية ومها كان الحديث والوصف (من جانب هؤلاء النقاد) فإنه لا يمكن لتفسير سب جمالة هؤلاء النقاد المليئة بالريبة . يقول بول سارتر في مقال له : إن الأفكار الجديدة لا ترضى الناس وربما صدمتهم . فإذا كان «كامارا لاى» ينال الرضى ونحور كتاباته الإعجاب في سهولة ، فذلك لأنه لم يأت بجديد حقاً . وإذا فإنه يجب أن يوضع في زمرة الكتاب المهمين الذين كثيراً ما تحدثنا عنهم في صراحة تامة . فهو إذاً ليس أول كاتب لا يتنازل عن حقه وربما سيكون لديه الطابع والعبقرية الكافية ليفرض نفسه بالرغم من تضافر الظروف المضادة له .

سارتر ومقال «إله الموسيقى الأسود» :

من خلال هذين المقالين يتضح تعريف الأدب الأفريقي وما يجب أن يكون عليه . ويرى سارتر أن هذا هو معنى شعر الحركة الفكرية الوطنية في أفريقيا . وكان هذا المعنى هو صيحة الثورة لطبقة المعدمين الكادحين السود .

يكتب مؤلف «إله الموسيقى الأسود» مقالة قائلاً : ليس من قبيل المصادفة أن يكون شعراء الحركة الوطنية والفكرية الأفريقيون المتحمسون هم أنفسهم المجاهدين والمكافحون من أجل الماركسية (على أنه من الملائم أن نلاحظ أن غالبية الشعراء السود - الذين يعنى سارتر بدراساتهم ودراسة مؤلفاتهم - من جزر الأنتيل أو ماهيتي . وأن كتاب «مختارات من الشعر الزنجي والملاجشي» للكاتب سنفور الذي اتخذ سارتر مقدمة لمقاله لا يشمل إلا على ثلاثة شعراء أفريقيين فقط من غير شعراء الملاجش هم : سنفور - بيراجودبوب - دافيد دبوب . فإذا ما راعينا ذلك علمنا مدى التأثير الضخم الذي أثره كل من سيزيروداماس منذ عام ١٩٤٨ وهو تاريخ نشر كتاب المختارات هذا لسنفور عن الشعر الأفريقي) .

ويبين سارتر أولاً أن سرالية شعراء جزر الأنتيل في ميدان الحركة الفكرية والوطنية كانت أقوى أداة كفاح . ويعيد رأى سنفور عن مجلة «الدفاع المشروع» التي أسسها «اتين ليرو» وبعض المثقفين الآخرين من جزر الأنتيل قبل الحرب بقليل . يقول سنفور : إنها أكثر من مجلة ، فقد كانت حركة ثقافية ، بدأ محررها بالتحليل الماركسي لمجتمع جزر الأنتيل وغيرها . واكتشف أن ساكن الأنتيل من سلالة عبيد من الزنوج الذين ظلوا طوال مدة ثلاثة قرون في ظروف معدمين وكادحين فجعلت منهم شعباً غيباً ، ثم أكد أن السريالية وحدها نستطيع أن نتفقه من كل ما حرم عليه كإنها قادرة على جعله يعبر عن شخصيته كاملة .

ويكشف سارتر (مؤلف إله الموسيقى الأسود) عن الهوة السحيقة التي تفصل بين السريالية البيضاء وبين الإنسان الأسود الثوري حين يستخدم هذه السريالية ، فضرب لذلك مثلاً شعر سيزير فيقول سارتر : إن ابتكار سيرنر كان في طريقه أن جعل كل هم في إبراز اهتمامه بكونه زنجياً مضطهداً ومجاهداً في شعره القوى الهادم للأوضاع القديمة والذي يتميز بالكثير من الحرية والأكثر روحانية في الوقت الذي فشل فيه كل من «الوارد وأراجون» من أن يعطيا في شعرهما العنصر السيامي .

ويصف سارتر في كلماته الآتية المجال الذي يظهر فيه شخصية الشاعر الزنجي وكأنه معدم ، فهو يقول : يتحول الجنس البشري إلى جزء من التاريخ . لقد كان الإنسان الأسود منذ لحظات يطالب بمكانته تحت الشمس باسم الإنسانية وصفاتها البشرية . والآن فإنه يبني حقه في الحياة على ما يقوم به من مهام يرى أنه مكلف بها . هذه المهمة مثل مهمة الطبقة المعدمة الكادحة التي تأتيه من موقفه التاريخي . ذلك لأنه قاسى أكثر من الآخرين حين ثار ليعبر عن معنى الحرية .

مونو - الناس والأسلاف والآلهة

يعطى الكاتب « جان هاينش » أهمية بتعريف معايير لا تمت إلى السياسة ولكنها تتعلق بالحركة الفكرية الوطنية الرزحية ، مع أنه لم يجهل مدى ميل وإغتيال الشعراء والكتاب الروائيين السود . ويحد « جاها » هذه المعايير في المفهوم الفلسفي للعالم الأفريقي التي تظل حسب رأيه المواد التي حوّاها الشعر والرواية الرزحية الخالصة - لذلك يجد هذا الكاتب نفسه مضطراً لإعادة بناء فلسفة قبائل البانتو المعتقدات الأفريقية الموروثة عن الأجداد كما يعرضها مختلف الكتاب الأوربيين والأفريقيين . فترى نيافة الأب « بلاسيد تمبر » يدرس في كتابه (فلسفة شعب بانتو) نظام علم الكائنات وحقيقتها عند قبائل بالوبا في الكونغو البلجيكي ، كما يدرس « مارسيل جربول » في كتاب « إله الماء » علم تكون العالم عند قبائل دوجون بالسودان ، ويدرس القس الكسيس كاجام في رسالته عن فلسفة شعب بانتو في رواندي يدرس الكائن الحي في رسالته التي قدمها إلى جامعة جريجوري في روما . وبعد أن يستخلص جاها خطوط القوى في هذا المنهج الفلسفي الرزحي الذي تشترك فيه أفريقيا كلها والذي لا تزال بقاياها تجعل العبادات « فادو » تحت شعار المسيحي (وهذه العبارات عبارة عن آلهة كثيرة ، منها الله واللعنان ويقوم بطوقها السحرة في جزيرة هايتي . ويلاحظ الكاتب بعد ذلك آثار تلك الفلسفات في مؤلفات الكتاب السود المعاصرين ليحفل منها حجر الزاوية في الثقافة الجديدة . وأول حجر زاوية منا هو الاعتقاد بأن الموق والأحياء يتمون إلى نفس المخلوقات (فيقول كاجام إن كلمة Muntu تعني الناس والأسلاف والآلهة) إذ تدور بينهم اتصالات مستمرة تسمح لهم بأن يتبادلوا تلك القطع الصميرة من القوة الحيوية « التي يجعل منها الكاتب تمثيل حجر الزاوية لفلسفة قبائل بالوبا ، ويحد جاها أصداء هذا الاعتقاد عند الكاتب بيراخود بوب في قصيدته « أرواح » التي يردد فيها العبارة بأن (الأموات لم يموتوا) وعند الكاتب أموس توتولا في كتابه (محمور الأدغال) نرى بطل هذا الكتاب يسافر من أجل البحث عن الذي أساء إليه - إنه يسافر طويلاً إلى بلاد الموق . وعند سنفور فإنه يطلب (من الموق الذين رفضوا أن يموتوا أن يحموا أسطح مباني باريس .

وهناك عنصر ثان أساسي وهو المفهوم الفريقي عن الكون . فنجد أن الكاتب كاجام يرى أن كل المخلوقات من إنسان وأشياء هي عبارة عن قوى بينها قرابة وتشترك كلها فيما يسمى ntu وهو

الكائن في حد ذاته أو القوة الكونية العامة ، كما أن هذا الاعتقاد في التماسك الوثيق في تكوين الكون والذي يسمح للشاعر الأفريقي أن يتعرف على نفسه في الطبيعة المسيحية ، ويكشف جاهن عن هذه الفكرة عند سنفور حينما كتب هذا الشاعر السنغالي قائلاً :

(ها قد عادت أيام القدماء ، عادت الوحدة وعاد الصلح والوثام بين الأسد والثور والشجرة)
ويظهر ذلك في وضوح تام في قصيدة « حتى يفقد الجسد » للشاعر ميزير فيقول :

حتى أفقد نفسي وأهوى

في ذرات طين حتى لأرض مفتوحة لا حدود لها

حينئذ أتصور الحياة تغمرني كلية فأشعر بها

تحسني أو تعضني

وهناك حجر زاوية أخير وهو الاعتقاد في قوة السحر التي يشبهها جاهن بمفهوم مماثل في علم تكون العدىم عند شعب دوجون المسمى Nommo أو في عبارة عن (الكلام والماء والطفلة والدم) عند « اوجمبلي » الحكيم الذي سأله مارسيل جربول - فوقاً للميتاميريقا الأفريقية كما يعرضها جاهن نراه يقول : إن أي تحول وأي خلق وأي تناسل يتم بواسطة الفعل وهو أيضاً القوة الحيوية التي يتصرف فيها فقط المنبو Muntu (الإنسان والآلهة والأسلاف) فالفعل مطلق السلطان في أفريقيا كما يقول سنفور والإنسان هو سيد الفعل .

ويكتب جاهن قائلاً : إن الاعتقاد الراسخ الذي لا يتزعزع بأن كل شيء بما فيه الشاعر نفسه يمكن أن يتحول بقوة مفهوم التومر التي تسيطر على فتي نوري كسييزر وعلى السخرية العميقة عند كاتب مثل توتولا . كما يرى جاهن أن صبيحة الزنجي الكبرى للشاعر ميزير التي ستهز أسس العالم ليست سوى ذكرى للاعتقاد الأفريقي القديم الموروث عن استطاعة الإنسان أن يتضرع إلى قوى الطبيعة كي تحطم العالم الاستعماري وهو الأمر الذي يهيمه قبل كل شيء ، ومن جهة أخرى فإن مفهوم نومو هذا قريب جداً من مفهوم الفعل والعمل الذي جاء في التوراة .

ويختتم جاهن حديثه مؤكداً بأنه لا يكفي بأن يكون الإنسان أسود واثراً حتى يساهم في الثقافة الأفريقية الجديدة . وقد جاء هذا المعنى في مؤلفات (رتشارد رايت) الذي أعلن في كتابه (القوة السوداء) حين كتب عن غانا فقد قال : لقد كنت أسود كما كانوا هم أيضاً سوداً ولكن هذا لم يساعدنني قط مرة واحدة ، فهل تعد مؤلفات هذا الكاتب من الأدب الأمريكي ؟ ولكن حين تعبر المؤلفات عن طريقة التفكير الأفريقي المحض وأنه تستمد علوماتها عن مصادر الفكر والمفهوم

الأفريقي في العالم فإن هذه المؤلفات تعتبر حينئذ مؤلفات زنجية .
ولهذه الأسباب نفسها يناضل جاهن فكرة ضم السعراء الرياليين واعتبارهم أمتداداً لسعراء
الحركة الفكرية والوطنية في أفريقيا . وقد رأى مؤلف كتاب « موتو » هذا الرأي
فيقول : إنه بينما يستلم الشاعر الريالي لقوة الكلمات ويدعها تتحدو عليه ويهاجمها في رجفة
لا واعية . . . يظل الشاعر الأفريقي سيد الكلمة مسيطراً عليها بل ويعطيها كامل السلطة على الحياة
المادية « ومن ناحية أخرى يرى « جاهن » أن المفهوم الأفريقي عن الفن يختلف في جوهره عن المفهوم
الغربي . فالتفن وفق المفهوم الأفريقي يخدم الطوائف والبيئة وهو اجتماعي وله وظيفة هي النفع ،
ولكنه عند الأوروبي فن للفرد ، أى أنه أناني ويهتم بالجمال فقط ، أى أن الفن للفن . وعلى ذلك
فقد تناول الفنانون والمثقفون والكتاب الأفريقيون هذا الموضوع بالشرح المستفيض ومنهم الكاتب
« بكاري تراوري » الذي جعل منه موضوعاً للكتابة عن المسرح الزنجي الأفريقي .

سيكوتوري وديمقراطية الجماعة والثقافة :

لقد كانت هذه الفكرة عزيزة على رجال السياسة . فقد تناولها سيكوتري في خطابه الموجه إلى
المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين الزوج . وقد تناول هذه المشكلة رئيس جمهورية غينيا من وجهة
نظرة كرجل الدولة . ثم من وجهة نظر الزعيم السياسي الذي يعتبر ممثلاً لثقافة معينة .
يقول سيكوتوري في خطابه هذا : إن أفريقيا ديمقراطية جماعية بصفة خاصة . فالحياة الجماعية
والتضامن الاجتماعي بصيغان عادتتا بصيغة من الإنسانية يحمدها عليها الكثير من الشعوب . وهذه
الصفة الإنسانية لا يمكن للفرد في أفريقيا أن يتخيل تنظيماً لحياته يبدأ عن حياة المجتمع العائلي
القروي أو عن حياة العشائر . إن صوت الشعوب الأفريقية لا وجه له ولا اسم له . وقد خلا من
الفردية ، ولكن في الأوساط التي أفسدها الاستعمار . . . من من لم يلاحظ تفشى الأنانية والفردية
فيها (تلك الأوساط) ومن من لم يسمع الدفاع عن نظرية الفن للفن وعن نظرية الشعر للشعر
ونظرية الدفاع عن مبدأ دفاع كل فرد عن نفسه واهتمامها — هذا بينما أن قناتنا المهولين يثيرون
دهشة العالم . وأن الناس في كل مكان يطلبون رقصاتنا وموسيقانا وأغانينا والتماثيل الصغيرة التي
نصنعها حتى يعرفوا معناها الدفين العميق .

يظن بعض مثقفينا من الشباب أنه يكفي للإنسان أن يعرف (برفير - ريمويد - ييكاسو أو
رينوار) حتى يصير مثقفاً وحتى يستطيع أن يسمو بثقافتنا وبأدبنا وبشخصيتنا . إن هؤلاء لا يقدر

سوى المظهر ولا يتكون إلا من خلال عقليتهم كمتعبدين . فهم يرون أن أغانيها الشعبية ليس لها قيمة إلا إذا اندمجت إلى حد ما واندسجت بالأسلوب الغربي الغريب قطعاً عن معناها الاجتماعي . فهم يريدون أن يكون رسماً كلاسيكياً أكثر وأن تكون أقتنا وتمثيلاً معلقة بالجمال فقط دون أن يعلموا أن الفن الأفريقي هو فن اجتماعي قبل كل شيء ، وهدف إلى المنفعة ، إن قدرات المثقفين أو الفنانين والمفكرين والباحثين لا قيمة لها إلا إذا ساهمت بطريقة فعالة في حياة الشعب واندمجت في العمل والفكر والأمانى الشعبية اندماجاً سياسياً .

وهكذا يرى رئيس جمهورية غينيا أن الفن الأفريقي يجب أن يكون أولاً فن مجاهداً مكافحاً ، ومن ثم فإن هذا الفن سيرف خصائصه التي كان عليها في المجتمع القبائل . ولكن يكون الفن للفن حقاً في حياة أفريقيا الجديدة .

قضية الحركة الفكرية الوطنية الرجعية :

ابتداء من هذا التحليل لدور الفن الأفريقي قام اثنان من الكتاب السود (فرانز فانون وازاكيل مباليل) وهما من الوطنيين المتحمسين ، قاما بمعارضة الرأي العام وقد وجهها اتهاماً صريحاً للحركة الوطنية الفكرية الرجعية .

ويفهم فانون ويؤيد إلى حد معين رد فعل المثقف الأفريقي المستعبد الذي يبحث عن قيم جنسه وعن وسيلة للدفاع ضد التشبه بالأوروبي وعن الأسباب التي تجعله يرفض مبدأ سمو ثقافة الأجنبي المستعمر عن طريق العودة إلى مصادر قيمة جنسه . كما يرى فانون أن مثل هذا الشخص يبذل مجهوداً يائساً لكي يعيد الصلة بالشعب وبين القوى الحيوية لدى الشعب التي سبق أن فقدتها . ولكنه يؤكد مع ذلك أن هذا لا يمنع من أن تكون هذه العودة إلى مصادر القيم ، هذه عودة وطنية بصفة خاصة . ويستطرد مؤلف كتاب «المليونون في الأرض» في فكرته فيقول : إن هذا الالتزام التاريخي الذي وضع رجال الثقافة الوطنية الأفريقيين أنفسهم فيه بأن جعلوا مطالبهم تتعلق بالعنصر البشري ويتحدثون كثيراً عن الثقافة الأفريقية وعن الثقافة الوطنية ، فهذا الوضع سيقودهم حتماً إلى طريق مغلق . كما أن فانون يقول حقيقة أن زواج أمريكا وزواج أفريقيا عليهم أن يجاروا معاً احتقار البيض الذين اعتادوا أن يضعوا كل الزوج في نفس المرتبة ولكن زواج أمريكا لاحظوا تدريجياً أن المشاكل المتعلقة بهم وبوجودهم لم تكن نفس المشاكل التي تواجه زواج أفريقيا .

ويستدل فانون على رأيه هذا فيذكر أنه في نهاية المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود المتعقد في

روما سنة ١٩٥٩ لاحظ بعض الزنوج الأمريكيين أن «المشاكل الموضوعية كانت غير متجانسة أساساً ، لهذا قرروا إنشاء جمعية أمريكية للمثقفين السود غير جمعية الثقافة الأفريقية التي أسسها «البن دبوب» وأصدقائه بعد المؤتمر الأول .

ويصرح قانون مؤكداً أن مرحلة الحركة الفكرية الوطنية الزنجية مرحلة ضرورية للمثقف المستعمر وإلا أصبح شخصاً لا وطن له ولا أرض له . ولكن إذا كان هذا الإجراء يصل في الناحية السياسية إلى مستوى غير مألوف فإن المثقف كثيراً ما يجد نفسه يسير في طريق مقفل من ناحية كيانه ووجوده . وحين يصل إلى ذروة تفاعله مع شعبه مهما يكن هذا الشعب - فإن المثقف لا يلبث أن يقرر العودة إلى طريق الواقع اليومي ، ولا يبقى له من مغامراته إلا بعض الصيغ غير المثمرة ، فهو يميز العادات والتقاليد والمظاهر ولا ينجم عن محبة المضي وعن هذا الجهد الجبار سوى بحث نافه لما هو غير مألوف . وبدلاً من الحركة الفكرية الوطنية الزنجية وبالرغم من فضائلها خاصة بإزالة الاستعمار الثقافي ، فإن قانون يقترح أدباً يندمج بطريق مباشر مع الكفاح الثوري . ويقدم لذلك مثلاً هو قصيدة الشاعر «كيتا فودينا» التي عنوانها «الفجر الأفريقي» والتي تحكي قصة جندى سنغالي من حملة البنادق الرشاشة يحصل على وسام لسلوكة في الميدان إبان الحرب العالمية الثانية ثم يقتل بعد ذلك أثناء عودته لأفريقيا عندما فتح حادث «تاروي» .

وفي نهاية الفصل الخاص «بالثقافة الوطنية» والذي أوردنا منه الفقرات السابقة يهاجم قانون عنف «ايمينجارا» وسنغور ، ذلك لأن حكومتي ملاجاش والسنغال لم تصوتا في صالح ما كانت تتماه الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية خلال مناقشات هيئة الأمم المتحدة للمشكلة الجزائرية . ولهذا فإن المؤلف لكتاب «الملعنين في الأرض» يعتبر هذا الحادث تصويراً مؤسفاً لمدى الغرور الذي طغى على الحركة الوطنية الفكرية الزنجية^(١) .

وقد أبرز قانون الفارق الكبير بين الأحداث الملموسة التي تفرض على الزنوج الأمريكيين وعلى الزنوج الأفريقيين وظروف كل من الفئتين من الزنوج لكي يقلل من دور الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية . وعلى فكرة مماثلة يرتكر «صرفيل مغاليك» إلا أن ذلك على صعيد القارة السوداء كلها . فيعبر عن تشككه في فاعلية النية الثقافية الأفريقية في أن تكون وسيلة لحل المشاكل الأفريقية في مجموعها . ويهم «صرفيل» أولاً بإظهار أن القرائن السياسية الأفريقية ليست واحدة ، فهى أنه من

(١) نجد الكثير من قصائد رايمينجارا في كتاب «المختارات» لسنغور وكان رايمينجارا في ذلك الوقت وزيراً في

حكومة ملاجاش .

الملائم أن نفرق أساساً بين المناطق الأفريقية التي أقام فيها المستعمرون البيض (أيضاً التجار الهود) بعدد كبير . والمناطق التي لا يمثل فيها السكان البيض إلا نسبة ضئيلة أو بين أجزاء أفريقيا التي يكون فيها مجتمع متعدد الأجناس . ومن المناطق التي ظل يسكنها السود بطريقة تكاد تكون مطلقة ، أى أنه يجب أن نفرق بطريقة ملموسة بين كينيا وجنوب روديسيا واتحاد جنوب أفريقيا من ناحية وبين باقي أجزاء القارة السوداء من ناحية أخرى .

ويرى «جرجيل مفاليك» أن موقف الكاتب والفنان الأفريقي في هاتين المنطقتين من أفريقيا يختلف من أسامه ، وبعد أن يذكر أشعاراً لسفور وداماس وحاك رومان حيث يعبر فيها الشعراء عن حنينهم لأفريقيا أرض الأجداد . يقدم المؤلف مشكلة الحركة الفكرية الوطنية الرئحية في أفريقيا بقوله : إن أكبر جزء من شعرهم رومانتيكى صرف ، وكثيراً ما يكون لا وسامة فيه ، ضحل ويشعر بالتوقف . فقد عنت مجلة الوجود الأفريقي أكثر ما عنت بالبحث في علم نشاط الشعوب لدرجة أنها لم تمر الثقاتاً لمشاكل الفنان بطريقة عملية . فهذا الذى أزعجنى وأقلقنى كثيراً أن تكون مؤسسة مفيدة كهذه المجلة لا يبدو عليها أنها قد وعت وأدركت التيارات المضادة التي يتم بها التعبير الفني في المجتمعات المتعددة الأجناس . وأن محرريها وقد يبدو عليهم أنهم يعتقدون أن الثقافة الوحيدة ذات القيمة والجديرة بأن تمجد هي الثقافة التقليدية الموروثة الوطنية . وهكذا كانوا يركزون همهم على بلاد لم يظهر فيها تفاعل تيارات المفكرين السود والبيض بشكل واضح وبمعنى صريح . فهم لم يتناولوا مجرد الأسس الثقافية حتى ولو تناولوا سطحياً - وكان الكثير من هؤلاء المتحمسين يذهبون في حماسهم حتى للدرجة الاعتذار عن العناصر القريبة التي تبدو في مؤلفاتهم وأعمالهم الفنية . من أجل هذا توقفت بباريس في طريق عودتي من إنجلترا إلى نيجيريا عام ١٩٥٩ لأتبادل بعض الآراء والأفكار مع القائمين على شئون هذه المجلة (الوجود الأفريقي) لكي تثبت وجودنا فيها نحن الذين ابتعدنا كثيراً عن الحياة القبلية والذين نتجق فثاً كادحاً (في المعلمين الكادحين) ترى هل جمعية الثقافة الأفريقية لبس بها مكان لنا ؟ هذا ما أردت معرفته . ويتابع مؤلف كتاب «صورة أفريقية» حديثه قائلاً : خلال حديثي مع توماس ديوب ورايميتجارا وبول نيجر حاولت تفهيمهم مشكلة الثقافة في المجتمعات المتعددة الأجناس وأنها مجتمعات مثل مجتمعات جنوب أفريقيا . فلقد اتخذت موسيقانا الكورال والجاز وأدبنا ورقصاتنا في أفريقيا الجنوبية طرازاً مميزاً يبين بوضوح اندماج الثقافات وأنا لا نخجل من ذلك مطلقاً . فرد على رايميتجارا بأنه لا يجب أن يكون اندماج للثقافات ما لم نحصل على الاستقلال مع أن كتابنا الذين يكتبون باللغة الوطنية وباللغة الإنجليزية

بدأوا إنتاجهم الفني من عام ١٨٧٠ تقريباً أى قبل أن تكون المقاومة السياسية في عام ١٩١٢ بوقت طويل .

ولقد فضح «حزبل فاللي» بدوره الفن الأجنبي الذى قد تؤول إليه الحركة الوطنية الزنجية (تماماً مثل ما فعل فانول) فراه يتصدى لرواية الكاتب «وليم كانتون» من سيراليون والتي عتوانها «الأفريق» ويعترف هذا الكاتب «من جنوب أفريقيا بأن هذا الكتاب مكتوب بطريقة جيدة وأفكاره غاية في العنابة، فهو يكشف عن إحساس عميق ولكنه يعتبر مثيراً جداً للطريقة التي تسمح للشعارات السياسية إذا ما تحولت لتكون قاعدة للفن فإنها تدمر وتخطم العمل الفني . فيضج كتون وفنه في مديح الحياة الأفريقية ويطلب فيها ويقدمها إلى القارئ الأجنبي وكأنه يقدم كشفاً جديداً ويعيد ويكرر بطل قصته في أنه يرى في نفسه الإنسان الأفريق . كما نجد في الرواية الطهر والبراءة الأفريقية وكذا الأقدام العارية «الحفاة» وفناه تعرض جسمها للمظهر وهي تتضحك . ويقول مغاللي «هذا : إنها صور قديمة بشعة تعودنا أن نلصقها بملاحظات الأوروبي الذي يفد إلى أفريقيا . كما أن الكثير من الاختبارات التي يمر بها بطل الرواية يهدف اكتشاف وطنه أفريقيا للمرة الثانية ، ولكي يظهر الشخصية الأفريقية إنما هي اختبارات مصطنعة والتي من شأنها إفساد عمل المؤلف - ترى لزماً أن يعود الأفريق المثقف من الخارج ليعاود استعمارنا ؟ وهل من اللازم عليه أن يسير وقد عرفناه دهشة وإعجاباً بمجال المرأة الأفريقية بإحساس الرجل الأسود . . إن كل ذلك ينكأ الجرح أكثر وأكثر . . .

كما يقول مغاللي : إن الحركة الوطنية الفكرية الزنجية لم تنشأ مصادفة عند كتاب المستعمرات الفرنسية حيث أجبروا على نظرية التشابه الثقافي أو عند كتاب المستعمرات البريطانية حيث تمارس السلطة غير المباشرة .

ومع ذلك فليس حكم مغاللي مع الحركة الوطنية الزنجية حكماً سلبياً كلية . فهو يعترف أنه يجب علينا أن نحافظ على بعض قيم الثقافة الأفريقية الموروثة عن الأجداد وأنه إذا كان ينكر الفائدة الناجمة عن البحث عن الشخصية الأفريقية كشعار سياسي فإنه يسلم سلامة أسس هذه الشخصية من الناحية الفنية على شريطة ألا يجعل منها عقيدة مطلقة - فإذا ما بحث الفنان الأسود عن شخصية فيسجد لها قطعاً أفريقية صرفة . أما إذا كان هذا البحث ليس سوى بحث لوضع معين فإن فنه سيقتضى كثيراً من ذلك الوضع . هذا ملخص لرأى مؤلف كتاب «صورة أفريقية» فهو يضيف أيضاً قائلاً : - «إني لا أستطيع أن أفكر في مستقبل بلادى دون أن يكون الأوروبي موجوداً بها رغب في

ذلك أو لم يرغب . فقد استوعبت الكثير من الأشياء الناقصة في الثقافة الغربية مثل موسيقاها وأدبها ومسرحها للدرجة أن لا أستطيع أن أتغلى عنها .

ومن المناسب أن نذكر كيف أن مواقف مغاليل السياسية تتفق مع آرائه في الناحية الثقافية . فإذا كان هذا الكاتب الجنوبي أفريق قد كشف مخازى نظام الحكم المبني على التفرقة العنصرية (لقد طرد من بلاده عام ١٩٥٧ لأنه احتج على قانون التعليم الخاص بقبائل النيتو الذي كان يلغى الجامعات المشتركة) ومع ذلك فإنه كان يأمل في مجتمع متعدد الأجناس على أن تتحقق فيه المساواة ولا تضطهد فيه أية أقلية عنصرية . ويسوق مغاليل آراءه ومعتقداته في أسلوب مهذب وفي ألفاظ متقاة فزاه يقول : إذا كانت القومية تتعارض مع القبلية فإني حينئذ قومي . أما إذا كان هدف القومى في المجتمع المتعدد الأجناس هو استبدال الديكتاتورية البيضاء بفاشية سوداء أى أن يستبدل مثلاً قبلية شعب البوير بوطنية متأحجة الحماس للقتال لتحقيق هذا الصنف من الوطنية فإني لا أوافق على ذلك .

ومن المناسب أن نذكر كيف أن مواقف مغاليل السياسية تتفق مع آرائه في الناحية الثقافية . فإذا كان هذا الكاتب الجنوبي أفريق قد كشف مخازى نظام الحكم المبني على التفرقة العنصرية (لقد طرد من بلاده عام ١٩٥٧ لأنه احتج على قانون التعليم الخاص بقبائل النيتو الذي كان يلغى الجامعات المشتركة) ومع ذلك فإنه كان يأمل في مجتمع متعدد الأجناس على أن تتحقق فيه المساواة ولا تضطهد فيه أية أقلية عنصرية . ويسوق مغاليل آراءه ومعتقداته في أسلوب مهذب وفي ألفاظ متقاة فزاه يقول : إذا كانت القومية تتعارض مع القبلية فإني حينئذ قومي . أما إذا كان هدف القومى في المجتمع المتعدد الأجناس هو استبدال الديكتاتورية البيضاء بفاشية سوداء أى أن يستبدل مثلاً قبلية شعب البوير بوطنية متأحجة الحماس للقتال لتحقيق هذا الصنف من الوطنية فإني لا أوافق على ذلك .

الثورة والحركة الفكرية الوطنية الزنجية

إن ما وجهه كل من فانون ومغاليل من نقد إلى كتاب الحركة الفكرية الوطنية الزنجية قد أظهر للعيان (بأن وضع النقط فوق الحروف) النضال الذي قام به المثقفون السود في سبيل استقلال أفريقيا وتمييزهم بين ما يدعو إلى الثورة وبين تمجيد القيم الزنجية .

وسجل فاتون تفصيله للأدب الذى يدفع مباشرة إلى العمل لأنه يعتبر أن المشكلة المباشرة هي الميل إلى صف الشعب المكافح - أما رد الاعتبار إلى أفريقيا الموروثة عن الأسلاف فهو مشكلة خاصة بالنسبة للمثقفين المستعمرين ولا يمكن أن تكون إلا مظهراً ثانوياً وجزئياً في المعركة . ويعتبر مغاللي أن العودة إلى مصادر أفريقيا الموروثة عن الأجداد قد تكون عملية غير مشرفة لاعتبارات كثيرة ، فهي عملية قد تم تخطيطها في أفريقيا الجنوبية التي أزيلت منها القبيلة والتي قد تم فيها تكوين فن برولينارى (المعلمين الكادحين) ممزوج بطريقة مبتكرة مع التأثيرات الثقافية المختلفة . وهي عملية سلبية لأنها تقطع الطريق على الفن الثقافى بفعل ما يأتي من الخارج وعملية غير ذات فاعلية لأنها انطوت على الذكرى بينما يتعين أولاً على الكتاب الأفريقيين أن يكشفوا عن الظروف والملابسات التي يعيش فيها المستعمر .

وقد يبدو أن هذه الانتقادات غير عادلة . فأولاً أنه غير عمل طبيعي أن تفضل بين أدب الاحتجاج وبين تمجيد القيم الزنجية كما فعل الكاتب الأتيلي وزميله الكاتب الجنوب أفريقي والسبب في ذلك أنه غالباً ما يكون نفسه متغنياً بالحركة الفكرية الوطنية وفي نفس الوقت يكون كاتباً ثورياً . وأن موجهى فكرة رد الاعتبار للقيم الزنجية قد اعتنقوا هذه الفكرة على أنها أحد مظاهر الكفاح ضد الاستعمار .

ومن ناحية أخرى فإن خطر الانطواء على النفس لم يغب عن منقو الحركة الوطنية الفكرية الزنجية الذين أعلنوا ضرورة خلط الثقافات ، ومن ثم فإن اتفاق الرأي بين هذين الكاتبين الأتيلي والجنوب أفريقي يستحق ما أن نقف عنده . فليس اتفاق الرأي بينهما أمراً عرضياً وتلقائياً بل إنه يطابق الضغط الناتج عن الظروف والأحداث التي تعرض لها كل من الكاتبين وهو ضغط متشابه جداً لدرجة تلفت النظر . فقد كان كل منهما قد جعل من نفسه الناطق بلسان الشعب الجزائري والشعب الجنوب أفريقي حيث تأثر الثقافة الأوروبية راسخاً بدرجة كبيرة لدرجة أن العودة إلى القيم الموروثة عن الأسلاف لا يكون له هناك نفس المعنى الذى يكون له في أفريقيا بلا مستعمرين . لكن ذلك يرجع بصفة خاصة إلى أن هذين الكاتبين حين كتبا مؤلفاتها كانا يخضعان لسيطرة أوروبية عنيفة (الحرب في الجزائر - التفرقة العنصرية في اتحاد جنوب أفريقيا) بينما كانت بقية أفريقيا كلها قد تحررت أو كادت .

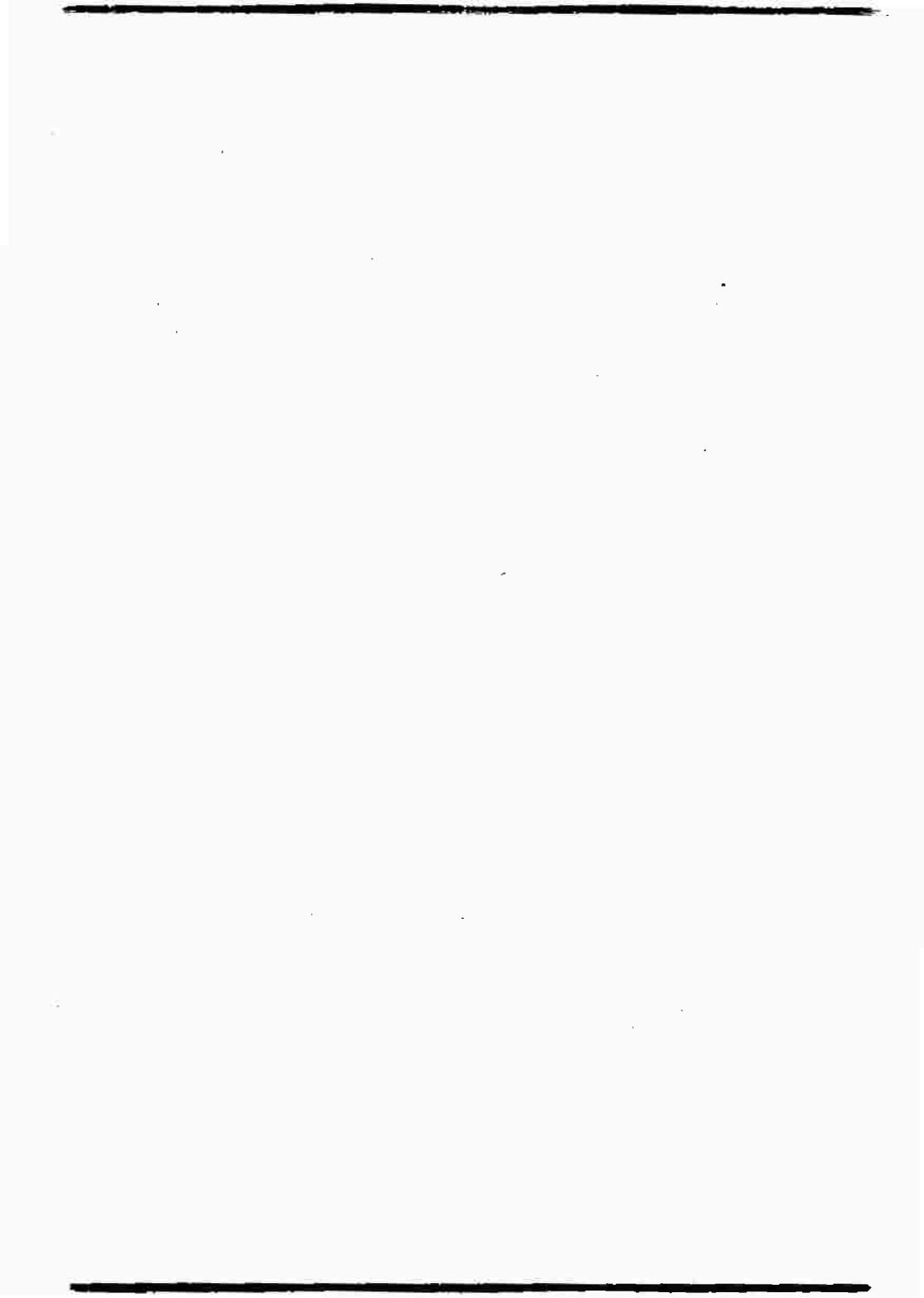
والنقطة الثالثة المشتركة بينهما هي حذرهما من البرجوازية - فيبين مغاللي أن الوظائف العليا كانت مخصصة للبيض فقط ، وبظل الموظف الأسود المثقف في اتحاد جنوب أفريقيا ضمن الطبقة

الكادحة (البروليتاريا) بينا في غانا وفي نيجيريا أصبح الحصول على المؤهل هو الطريق الذى يوصل بالتأكيد للوظائف ، كما أنه هو طريق الترفى إلى الوظائف البرجوازية وتتضمن جميع مؤلفات فانون احتقاره الذى ينساب بين سطورها للبرجوازية الوطنية والتي نعى بالامتتار بجميع المزاي على حساب جمهرة الفلاحين التي يعتبرها الكاتب طبقة الكادحين الحقيقيين .

وعلى ذلك فقد شعر كل من الكاتبين بالحاجة إلى تضامن فعلى خاصة في الميدان الواقعي الذى يتحرق للكفاح اليومي في الموقف المحزن الذى كانت فيه الشعوب التي يتيمان إليها . فبالنسبة لها وفي الوقت التي كانت الدماء تسيل في مدينة شاريفيل وفي الجزائر كانت العودة إلى مصادر الحكمة الزنحية أقل ضرورة من الكفاح والاحتجاج^(١) .

• التام الذى يبدو أن حججه هذه تفترض فيما يتعلق بثقافتنا التقليدية والحوية .

(١) نشرت مجلة الوجود الأفريقي في عددها رقم ٤٤ نقداً لكتاب «صورة أفريقية للناقد أيبولا إيريل (على خرقيل في نقط عديدة . ويرى كاتب المقال أن المؤلف يظهر عدم إحساس عجيب إزاء طبيعة الاختيار الذى واجهه الزوج المثقفون الناطقون باللغة الفرنسية إبان سنوات النشء بالأوروى ، هذا بينا أن كتابه يدخل بطريقة تدعو إلى السخرية إلى إطار الحركة العامة لإعادة تقدير أفريقيا وشعبها وهو أساس الحركة الفكرية الوطنية ويضيف الناقد أن إلحاحه في حيوية الثقافة الكادحة الجديدة ربما يكون حجة مثبتة ولكن ماذا نستطيع أن نكسب من وراء عدم الأكثرث .



الباب الثامن

ديدمونة الجديدة

ربما قرأتم في هذه الأيام في الصحف مغامرة الأرنب الأسود الذي تزوج في ضوء القمر من أوبية بيضاء في كتاب أمريكي كتب للأطفال الصغار ، وقد مجحت يقظة البيض في ولاية «ألاباما» في اتهام هذه الأرنب ، لأن مغزى القصة هدام . . ومن أجل ذلك منعت أو صادرت هذا الكتاب من جميع المكتبات - فإن ما يصلح للأرنب يمكن أن يصلح للناس . . بهذا المعنى كتبت جميع الصحف العنصرية في الولاية ، فإذا حدث أن تزوج زيجي بامرأة بيضاء فيلأ أين يكون مصيرنا إذا ؟ ومنذ بضعة أيام سابقة علمتم نقلا عن بعض الصحف الفرنسية أن الكاتب الزيجي «أبوتو» الذي ارتكب جريمة التنزه مع امرأة بيضاء قد طعن بمنجرفي الحى اللاتيني تحت سمع وبصر المارة الذين أظهروا عدم مبالاة للجريمة - وهكذا تكون حال العنصرية المهترئة أو الأمريكية أو الفرنسية ، فإنها دائما هوجاء وقاتلة^(١) .

تلك الألفاظ السابقة يصم السيد «ابنابيا» الأستاذ بجامعة السربون بباريس العنصرية ويندد بها في خطاب ألقاه في اليونسكو بباريس إبان الاحتفال بيوم الكفاح ضد العنصرية ومعاداة السامية والعمل في سبيل السلام .

وفي الحقيقة فإن أكثر الأشياء التي تظهر العنصرية في الناحية التطبيقية مجدها في العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة . وتعبر العنصرية عن ذلك بوسائل مختلفة وفقاً للظروف والملابسات ، وتبدأ من الاستنكار الاجتماعي البسيط لخلط الأجناس حتى تصل إلى النص القانوني الذي يستبعد حدوث ذلك الأمر .

وفي الأراضي الناطقة باللغة الفرنسية لم يصدر مطلقاً أى نص يجرم أى شيء بهذا الخصوص بل

(١) وردت بمجلة الوجود الأفريقي ص ١١٤ العدد ٢٦ وكتاب الأطفال المشار إليه هو زواج الأرنب للمؤلف

هارث ولم .

على النقيض يوجد تشريع ضد العنصرية وبالأخص قانون ٢٩ الصادر في يوليو سنة ١٨٨١ الذي يعاقب بالسجن من شهر إلى سنة وبالغرامة أى تشهير يأتى عن طريق الصحافة تجاه أشخاص يتمون إلى عنصر أو دين معين حين يكون الهدف من هذا التفسير التشهير وإثارة الحقد بين المواطنين . وفى الأراضي البرتغالية يعتبر خلط الأجناس جزءاً لا يتجزأ من المذهب الاستعماري ، ويقول

الشاعر الإنجليزي «ماريودى اندراد» إن ذلك الخلط هو أحد مظاهر القوانين الاستوائية . ويذكرنا هذا الشاعر قائلاً : إن البعض ومنهم مثلاً العالم الاجتماعى البرازيلى «جيلير توفريه» يؤكدون أن البلاد الاستوائية الواقعة تحت النفوذ البرتغالى وتحت الإدارة المسيحية (البرازيل - أفريقيا - الهند ماديرا - آزور) نرى فيها أن عملية هذه الوحدة فى المعاملة كان نتيجة منطقية كوسيلة من وسائل الاستعمار البرتغالى وللمودة والاستلطاف الذى يتم به شعب البرتغال وهو أكثر المستعمرين الحديثين مسيحية فى معاملته مع الناس المنحدرين من عنصر منحط . والبرتغال بسبب احتكاكه بالعرب يبدو أنه قد اكتسب مقدرة وراثية تمكنه من الحياة تحت الشمس ، خط الاستواء ، كما اكتسب ميلاً طبيعياً للمغامرات الجنسية مع النساء الملونات تحت رعاية فينوس (إلهة الجمال) السوداء . ولذا فإن «فريه» يعلم بوجود طابع معين ونوع من التكيف البيولوجى - الحيوى - والاجتماعى يتصف به البرتغالى إلى ناقل الحضارة إلى المناطق الاستوائية^(١) .

وفى اتحاد جنوب أفريقيا فالزواج المختلط ممنوع كما أن العلاقات الجنسية بين شخصين مختلفين فى العنصر ممنوع أيضاً . ومع ذلك فغالباً ما تتسامح محاكم جنوب أفريقيا مع البحارة الأوروبيين الوافدين مؤقتاً والذين يجالطون العاهرات السود . ولكن قراءة الصحف التى تصدر فى مدينتى «جوهانسبرج» والكاب «تجملنا نفكر فى أن هذه الأوضاع القانونية أصبحت أداة للتهديد بالقضيحة أو على الأقل طريقة مؤكدة للحط من قدر هؤلاء الذين يجعلون أنفسهم مذنبين فى نظر قانون جنوب أفريقيا .

وفى اتحاد روديسيايتا سيلاند الفيديرالى كان القانون يميز بين الجنسين . فكانت العلاقة بين الرجل الأبيض والمرأة السوداء تعتبر مباحة ، والعكس إذا كانت العلاقة بين المرأة البيضاء والرجل الأسود فهى ممنوعة ويعاقب عليها القانون .

(وبعد الحرب العالمية الثانية بعد سنوات كانت التطبيقات السياسية غير المألوفة لقصة حب عادية قد لفتت أنظار الرأى العام إلى المزارع الباطلة التى تديمها العنصرية فى أفريقيا الجنوبية فهى

(١) بالطبع أن الكاتب إندرادوا لا يشارك الكاتب «فريه» فى هذا الرأى أو فى جميع أفكاره .

قضية «سرنس خاما» وريث أحد زعماء قبائل بشوانا لاند (وهي واقعة تحت الحماية البريطانية تحيط بها أراضي جنوب أفريقيا) الذي منع من أن يخلف أباه لأنه قد تزوج من امرأة شابة إنجليزية).

أما جنوب الولايات المتحدة الأمريكية فإن التشريع الذي يمنع العلاقات الجنسية بين الأجناس الثنائية يختلف من ولاية إلى أخرى.

وكان لزاماً علينا أن نتطرق من المظاهر المختلفة للعنصرية بخصوص العلاقات الجنسية أنها ستقدم المواضيع المتعددة للشراء والكتاب والروايات والمؤلفين الزوج. وخاصة في الولايات المتحدة حيث استغل «ريتشارد رايت» وشيختر هابيز هذه الظاهرة بالذات.

ولن يدهشنا أن نلاحظ أن عقدة الرواية ومدارها في جميع هذه الرواية متآكلة. ففي جميع هذه الكتب أو أكثرها نجد اغتصاب الرجل الأسود للمرأة البيضاء وكيف أن الجمهور الثائر يقبض على الرجل الأسود أو يعمد به بواسطة (الكوكلوكس كلان) وهما الحائمتان المتطرفتان الحتميتان لهذا الصنف، ويتبع عن هذا غالباً صورة لشخصين مشتركين في العملية: فالرجل الأسود يجتذبه المرأة البيضاء وتغريه حتى لا يستطيع مقاومتها وتكون العملية أكثر خطورة كلما كان الإغراء كبيراً. وتبقى ذكريات الإذلال التي يختص بها عنصره كرجل أسود مائلة أمام عينيه وشحى في حلقه، ولكنه يتغلب على هذا الشعور بمحوه من رأسه حين يغزو المرأة البيضاء وتبقى رغبتة الثائرة مصحوبة بالظلمة إلى القتل. وتكون المرأة البيضاء مجرمة هي أيضاً ويسحرها الرجل الأسود هي الأخرى ولكن حين تشبع غريزتها منه تسرع إلى الصياح بأنه اغتصبها. وباختصار قلنا توجد المواضيع الأدبية التي تمتزج فيها الجريمة والحب والدم والجنس بهذه الصورة السقيمة.

وتعتبر قصيدة الكاتبة الأمريكية الزنجية «حويندولين بروكس» بعنوان «شكوى بيرل مايلى» أقوى دليل على هذا المفهوم المتعلق بالشخصيتين أنها صحيحة الثأر البائسة الصادرة من العشيقة السوداء التي تهجر بسبب امرأة بيضاء ثم تهم هذه المرأة البيضاء شريكها الأسود والذي قاسمها رغباتها. نهمه أخيراً بأنه اغتصبها.

تقول الكاتبة:

إنك منذ طفولتك في المدرسة وأنت تجرى وراء الفتيات اللاتي يبهرن الأنظار
وكنت لا تحتمل الجسد الأسود ولا تنظر إلا للبشرات البيضاء
وكانت البشرات السوداء لا تصلح إلا للجوعى

ولكنك لا تنظر إلا للدوى البشرات الصافية البيضاء
وكانت البشرات السوداء لا تصلح إلا للجوعى
وكبرت وبقيت رأسك ممتلئة بالبشرات الصافية اللون
وكتت أنا لا أصلح إلا للمخدع وكثيراً ما لفظتني
وكثيراً ما تميت موتك .

ثم جاءت امرأة بيضاء ذات يوم . وعزمت لك هذه الماكرة
فسقطت أعمدتك ونهات رجلاك وتخلخت
وأخذت تفكر حتى أعياك التفكير . لقد فكرت . فكرت كثيراً
حتى أضناك هذا التفكير

إني أنحملك وأنت في إحدى الضواحي تحت ضوء القمر ترمقك عين اليوم البقطة
والليل الحلو الحالك يحيط برغبتكما . يطوق ويطوق برغبتكما
ستقولى لى : إنها كانت مع ذلك بيضاء مثل اللبن ، أليس كذلك ؟
وهل كان ثدياها ممتلئين كالأكأس . وهل ارتشفت نصيبك من
هاذين الكأسين فى مؤخرة سيارتها البويك . لقد نهلت وشربت
ثم . . طردتك وأخرجتك من حلمك الجميل . وقالت فى هدوء
أياها الزنجى لقد اغتصبتنى . وصعد إلى وجهك الحجل فى هدوء
لقد اغتصبتنى أياها الزنجى أياها الشيطان . هل تعرف ما سأفعله الآن ؟
أياها الشيطان . ماذا تعتقد أنى سأفعله

إنى سأذهب إلى الرجال البيض فى المدينة ، وأحكى لهم جميعاً حتى يشفقوا علىّ
إنك أياها الزنجى قد حصلت على جدى هذه الليلة وغداً . . .
سأحصل على جثتك . غداً . غداً سأحصل على جثتك .

إنها عبقرية ريتشارد المتكررة تبدو فى ابتعاده عن هذه الصور المألوفة عند الجميع فنراه فى كتابه
«فوق عين البلاد» ففاته «بيجر» لم تغضب ماري وقد قتلها من غير عمد (بالصدقة) ولكنه قتلها فى
الحقيقة لأنه يعلم مقدماً قوة الاتهام الشائع فى أنه سيعتبر مغتصباً لها . ويحكى المؤلف القصة قاتلاً .
إن بيجر توماس سائق أسود يعمل عند فتاة بيضاء تدعى ماري . ويحمد ماري إما عن اقتناع وإما
بدافع العنجهية (الحبلاء) وتمت تأثير خطيبها (جان) نجدها تتسل بتحدى المزايم الباطلة التى

تصل بالأجناس البشرية . فأرى وخطيبها يعاملان بيجر معاملة ودية للغاية .

فذات مساء يعاون بيجر ماري المحمورة للدرجة قصوى على الارتقاء إلى حجرتها ويعاونها لكي تمام . وفي اللحظة التي يستعد فيها بيجر لمغادرة الغرفة تدخل أم ماري وهي كفيفة البصر (عمياء) الحجره فيفقد بيجر صوابه ويضع وسادة على فخ ماري التي تئن لأنها عمورة . فيقف بيجر وقد شله الخوف من أن تلاحظ الأم وجوده في الحجره . ولكن الصمت يسود الغرفة فتفتتح الأم أن ابنتها لم تحضر بعد فتغادر الغرفة ولكن ماري تكون قد ماتت خلال فترة انتظاره ويعلم بيجر علم اليقين أن أحداً لن يصدق روايته للحادث وأنه لا بد منه إلى الكرسي الكهربائي .

ويته موضوع العلاقات الجنسية تجاهاً آخر إذا ما تركنا الولايات المتحدة الأمريكية وذهبنا إلى جزر الأنتيل وأمريكا اللاتينية . فبما يتعلق بالعلاقات العنصرية فإن القاعدة الاجتماعية هناك نجدها مختلفة جداً . ففي الولايات المتحدة الأمريكية لا يزال الشخص حتى المختلط ذو اللون القاتح (أو الأبيض) والذي يكاد أن يتخطى الحد الفاصل بين السود والبعض لا يزال يعتبر زنجياً . فن الحدود التي بين المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية تمارس عملية تمييز في اللون تختلف في دقتها باختلاف سواد البشرة فهي تحمل محل البطاقة الشخصية (إذ تظهر درجة الشخص الاجتماعية تبعاً للون بشرته) مما دعا «جورج بادموور» أن يرى أنه لزاماً علينا أن نجد تفسيراً لنظريات الكاتب «ماركوس جارف» من جاميكا . النظريات الخاصة ببقاء العنصر الأسود وهي النظريات التي اختصها ودافع عنها هذا الكاتب في الولايات المتحدة الأمريكية إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى بقليل . وتفسر هذه النظريات تلتخص في أن هذا الكاتب ماركو جارفه أصله من جاميكا . فقد كتب جورج بامور عن هذا الرجل قائلاً .

لقد كان ماركوس جارفه يعتقد في أنه النبي موسى بالنسبة للجنس الأسود . وبما أن الشعب المختار لا يمكن أن يدنس فقد قرر طبعاً أن الزواج هم وحدهم الذين يستطيعون أن يحتلوا مركزاً في منظمة «الرابطة العالمية للنهضة بالرجل الزنجي» التي أسسها ، وهو استنتاج منطقي جداً لمفهومه لنظرية اتحاد الزواج . وكان يحد في نفس الوقت كلا من البيض والسود من الخطر الذي يهدد قنائه عنصريهما . فيقول :

إنه من الواجب على أصحاب الفضيلة ذوى الدماء النقية من العنصرين الأبيض والأسود أن يدافعوا ويجمعوا بجهدهم ونشاطهم وحكمتهم مستقبل الشعبين وذلك بمعارضة الدعابة الهدامة والجهود المحجلة التي ينادى بها مناصرو الخلط بين الأجناس من الجنسيتين الأبيض والزنجي المخلصين .

وأن تعصب جارق العنصرى يدخل فى صراع مكشوف مع الشخصيات السياسية والدينية من الأمريكين السود وعلى الأخص مع زعيمهم ورتدهم الدكتور و. إ. ب. ديبوا صاحب فكرة الوحدة الأفريقية والذي كان أحد زعماء الرابطة القومية لتقدم الشعب الملون . حتى أن جارق قد تهادى فى ذلك للدرجة أن قبل مساعدة اثنين من ألد أعداء الزوج وهما « أ. س. كوكس » من لكيلوكوكس كلان وكذا جون بادل من (نوادى الأنجلوساكسن) هذان العدوان كثيراً ما خطبا فى الاجتماعات التى كان يعقدها جارق ويوافقان على سياسته التى تهدف إلى العودة إلى أفريقيا مع الضغط على فكرة (النقاء العنصرى) .

كما يفسر بادمور حقد جارق على المولدين الذى سببه أن هؤلاء المولدين كانوا فى جاميكا يشكلون طبقة متوسطة يؤول إليها جميع الأعمال التى لا يرضى عنها البيض . بينما كان السود يكونون عالية الشعب المحترمة الدينية المكونة من عمال المدن والفلاحين وإجراء مزارع السكر . ويسرمل بادمور فى إبراز فكرته قائلاً : فى بلاد يعتبر لفظ أبيض مرادفاً للثروة والسلطة كان من الضروري أن تكون درجة اختلاف الألوان لها أهمية عظمى وأن يكون الأكثر فقراً هم الأكثر سواداً . لذا كان المخلطون (المولدون) يجهدون بل ويصرون على أبعاد من هم أذكى منهم لوناً والذين كانوا يحاولون الارتقاء إلى درجتهم الاجتماعية . وكان السود ينظرون إليهم كأنهم القائمون على حراسة امتيازات وسلطات البيض . كما أن المولدين كانوا يقلدون البيض فى كل شىء وأما السود فهم المحقرون ، هكذا كان الوضع والحال فى جاميكا أيام جارق .

ويجتم بادمور كتابه بعنوان « مفهوم الوحدة الأفريقية » هذه الملاحظة : إن موقف الولايات المتحدة كان مختلفاً تمام الاختلاف عنه فى جاميكا . فى الولايات المتحدة فالغالبية البيضاء فى حاجة إلى خدمات المولدين لتبقى الطبقة الزنجية على حالتها وفى مكانها . فجتمع الزوج والمولدين فى مستوى واحد بالنسبة إلى البعض ، فهم زوج بالنسبة إليه (إلى الرجل الأبيض) ولهذا فقد كان يكافح الزنجى الداكن والزنجى الفاتح معا فى سبيل ارتقاء عنصرهم والنهوض به .

وتميز الطبقات فى المجتمع لم يكن أقل ظهوراً فى الجزر الواقعة تحت نفوذ الأسبان أو الفرنسيين وفى المستعمرات البرتغالية فى جاميكا . فلقد قام الكاتب الكوبى الأسود فرناندو آرتره بتحليل دقيق مرتب فى كتابه للكلمات والمفردات المستخدمة فى القرون الأولى للاستعمار فيقول : كان الإسبان يضعون المولدين فى مراتب ، فهناك مولدون بيض ومولدون لونهم كلون بشرة الذئاب ومولدون كمظهرهم مظهر الذئاب .

ومن جانب آخر فإن الكاتب «مورودي سانت ماري» قد حاول في عام ١٧٩٧ أن يميز بين ألوان البشرة التي هي نتيجة لعملية الخلط بين البيض والزنوج وسكان البحر الكاريبي وبين المتوحشين ومع الهنود الحمر الغربيين . هذه المحاولة ظهرت في كتابه بعنوان «وصف طبوغرافي طبيعي ومدني وسياسي وتاريخي للجزء الفرنسي من جزيرة سانت دومينجو» .

ويبين الكاتب الأمريكي الأسود «جيمس . و . ايڤي» أن المصطلحات والمفردات التي كان يستعملها البرتغاليون في البرازيل كانت هي الأخرى متباينة ومتنوعة تماماً قبل مفردات الإسبان ، ولكن البرازيليين كانوا يعتقدون أن الأفريقيين تصدر عنهم رائحة تسمى «كاتنجا» تشبه رائحة التيس ، وبين الكاتب «ماسيدودي سواريز» في قاموسه البرازيل للغة البرتغالية أن استعارة كلمة «التيس» أصلها كلمة برتغالية وتعني الرائحة الكريهة التي تصدر على الجنس وهي تشبه رائحة الماعز .

أما في جزر الأنتيل وفي أمريكا اللاتينية فإننا نجتاز عالماً يصبح فيه خلط الأجناس هو القاعدة كما تعدد فيه حوادث الاغتصاب والقبض على الرجل وقتله ، هل هذا يكفي لأن يكون محور القصيدة أو الرواية الزنجية . وتبقى المزايم الباطلة قائمة وتصبح المحرمات الاجتماعية هي سبب هذه المزايم الباطلة . فيكتب جيمس . و . ايڤي ويقول : إننا نجد الكثيرين من كتاب أمريكا اللاتينية من ذوى الدم الزنجي يشعرون بقلق دفين لأنهم ولدوا مولدين حتى ولو كانوا لا يعرفون بانتمائهم إلى الدم الأفريقي . هذه كانت حالة الكاتب البرازيلي «ماشادودي أسيس» ولو أن هذا لا يظهر بوضوح في مؤلفاته إلا أنه ينظر للحياة بنظرة بلون خاص غير أنه يقدم مواضيع في قصصه تتسم بالحزن والسقم ففي قصة «أباليدا» مثلاً أو المرأة الشاحبة والتي وردت في كتابه التاريخي الذي نشره «ر . ماجالاس الصغير» تحت عنوان «قصص في أزمنة خالدة» وتتلخص هذه القصة في :-

أنه شاب تطرده من اختارها قلبه حتى إذا ما ورث عن (ربيه) الذي كفله صغيراً مبلغ ثلاثمائة ألف دولار فلم يعد يراها ذات بشرة ناصعة كما كان ينظر إليها من قبل ، فبدأ يطردها من ذهنه ويحتقرها . وبعد الاستسلام والاستمكاة إلى هذا الإحساس بدأ يبحث للحصول على امرأة أكثر شحوباً . والمرأة التي تحقق مثاليته مصابة بالسل في أقصى درجة من درجات المرض وتموت خلال أسبوعين .

أما عن المؤلف نفسه ، وهو هذا الكاتب المولد ، فإنه كان يعلم تماماً حق قدره ومرتبته في المهنة الاجتماعية حتى أنه كان يكتب في مذكراته (يوم ٢٤ يناير سنة ١٩٠٨) قائلاً في مرارة «بالشقاء

وبالبؤس المرء غير الأبيض^(١) .

إن نفس المواضيع التي حواها الشعر والرواية والقضية الزنجية في أمريكا الأنجلوسكسونية وفي أمريكا البرتغالية التي سزاها هي هي في شعر الشعراء الناطقين باللغة الفرنسية بل سيكون لديهم نواح جديدة تعبر عن ظروفهم الخاصة بهم ، وعليه فلن نرى أثراً للقلق الذي كان يظهره كل من «جيمس . و . أيني» و «ماشادودي أسيس» وخاصة هذا الأخير في قصيدته القصيرة عن «ليون لا لو» من هايتي بعنوان (الطيف) حيث يقول :

إن السيدة القادمة من روتردام

في طريقها إلى قضاء الموسم في (كان)

إنها تفكر وهي تذرع الطريق . تفكر في جزر الأنتيل

وفي حقولها المزرعة قصب السكر

وفي ابنة عمومتها «روث» المولودة في المستعمرات التي لا تزال تتحدث عن هذه الرحلة . حيث

أحست بحاجتها إلى معايشرة رجل مولد جنسيا

من جزيرة مارتيك

كما يوجه الكاتب الهيايتي «جان . ف . بربر» حديثه إلى إخوته في العنصر فيقول لهم في قصيدته

بعنوان «النفس السوداء» : -

لقد قابلتكم في المصاعد في باريس

وكنتم تقولون إنكم من السنغال أو جزر الأنتيل

وكانت البحار التي اجتريتموها تزيد رغبتها على أسنانكم

لقد تحدثنا معاً على ظهر الباخرة

فكنتم تعرفون بيوت الدعارة في العالم أجمع

وتعرفون كيف تجامعون النساء بكافة اللغات

وكانت جميع العناصر البشرية قد أصابها الإغماء من قوة أحضانكم

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه المطالبة بالقوة الجنسية من جانب الذكر الأسود التي يصفه بها

الكتاب أمثال «الالو بربرير» تعتبر أيضاً إحدى الصور (العلامات) للعنصرية الأوروبية التي

(١) ورد في مقال في مجلة الوجود الأفريقي في العديدين ٢٤ ، ٢٥ ص ١٣٠ بعنوان «أن تكون زنجياً في دول

أوجدت فكرة الخوف من قوة الزنحي الجنسية على حد تعبير «فانون» إذ يقول هذا الكاتب الأتيكي في كتابه الذي عنوانه «بشرة سوداء وأقنعة بيضاء» إن سبب هذه الظاهرة (ظاهرة الخوف) يرجع إلى أن الإنسان الأبيض المتحدين يحفظ في نفسه حيناً غير معقول نحو الوطن أيام أن كانت الحرية الجنسية مباحة بشكل غير عادي وبمواقف تمارس فيها الشهوات بإفراط ويحدث أثناءها اغتصابات للمرأة لا عقاب عليها ، وكذا نوع من الفسق المحرم لمضاجعة الأهل وهو فسق لا يمكن فعه . لذلك ترى الأبيض ينقل كل هذا إلى الأسود ثم لا يلبث بعد أن يعكس كل ذلك عليه أن بسلك معه سوف كما لو كان الأسود كان يمارس هذه الأشياء من قبل (من قبل الاستعمار) - ومن ناحية أخرى فإن فانون يعتبر إغراء المرأة البيضاء وجاذبيتها للرجل الأسود تعبيراً عن رغبة الأسود في أن يجعل نفسه أيضاً بأى ثمن كان - فزاه يكتب ذلك في سخرية : تعترى الرغبة فجأة أن أكون كذلك أيضاً فيتصاعد هذا الشعور من نفسى المظلمة السوداء وهذا الانفعال يعتريني خلال الجزء المظلل من روحي - إننى لا أود أن أكون أسوداً بل أريد أن أكون أيضاً وإلا . . . وهذه معرفة لم يصفها هيجل ولكن من يستطيع وصفه ومعرفة سوى المرأة البيضاء وحدها ؟ فهي حين تحبني فإنها تقنعني بالبرهان على أنى جذير يحب البيض . فهي تحبني كرجل أبيض . إننى رجل أبيض إذاً . فند ثلاثين عاماً صاح رجل أسود جميل التقاطيع ويتمتع بجمال بشرة صافية ، صاح أثناء مضاجعته لامرأة شقراء ممتلئة حرارة وملتهبة الحواس ، صاح قاتلاً : يحيا شلوخر : وشلوخر هذا هو الذى جعل الجمهورية الثانية في فرنسا تصدر قراراً بإلغاء الرق . ومن هنا نفهم أنه يجب أن نتمتع بعض الشيء في دراسة العلاقات الجنسية بين الرجل الأسود والمرأة البيضاء^(١) .

أما الشاعر الجيايى (ليون . ج . داماس) فلم يشأ أن يعرف سوى نساء جنسه فيقول في قصيدته (ردوا) .

أعبدوا إلى دميائى السوداء حتى أهوها

وألعب بها ألعابى الفطرية الساذجة النابعة من غريزتى

أعبدوها إلى دميائى السوداء

دميائى السوداء . . . السوداء

ردوا إلى دميائى السوداء

حتى يصرفن عنى صور العاهرات صفراوات اللون بائعات الهوى

(١) من البديهي أن فانون لا يصدق أن هذه القصة حقيقة ولكنه يرى أن مجرد سردها له معناه .

واللاتى يذهبن ويحيين (يسرن رائحات غاديات) في طريق ضجرى
ردوها إلى هذه الدميات السوداء حتى ألو معها وأمارس ألعانى
الفطرية الساذجة

التابعة من غريزى . أعيدوها على هذه الدميات السوداء
دمياتى السوداء . دمياتى السوداء . السوداء

وسنجد صدى لعمليات القبض على الزوج واغتياهم (في جنوب الولايات المتحدة) عند
شعراء الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية - هذا الصدى هو نتيجة لما بقى عالماً بذاكرة الشعراء
والكتاب من مساوى الرق والعبودية .

ف نجد عند شعراء الأنتيل وشعراء «جيانا» الناطقين باللغة الفرنسية مثل الشاعر داماس في كتابه
بعنوان Black Label نجد عبارة تتكرر كثيراً وفي نغمة لاذعة ، هذه العبارة هي : لقد شئت هذا
الصباح زنجى مذنب لأنه أراد أن يتخطى الحاجز والحط الفاصل بين الأسود والأبيض . هذه
العبارة يتردد صداها بين أبيات القصيدة كلها- كما نجد ذلك أيضاً عند الكتاب الأفريقيين .
فى عام ١٩٥٥ قبض الجمهور على شاب زنجى في الخامسة عشرة من عمره اسمه «إيميت يتل»
وشنقوه في مدينة موى بولاية ميسيسى لأنه تجراً وأصدر من فم صغيراً ليبدى إعجاب به حيناً مرت به
شابة بيضاء . وقد برئ الشابان الأيضان اللذان قتلاه - كان هذا هو موضوع قصيدة الشاعر
السنغالى «دافيد ديبوب» بعنوان : إلى صدى أسود

خسة عشر عاماً - وحياته متفتحة ويانعة وكلها آمال

في الأقطار التي تلامس فيها البيوت السماء

والتي فيها القلوب جامدة - والتي يضع السكان فيها أيديهم على الكتاب المقدس

ولكن لا يفهمون معانيه . . . إذ لا يفتحونه

إن الحياة في سن الخامسة عشرة تهدئ من نهم الأنهار

حياة ذوى الجلود التي لفحتها النيران الملقين بالزئوج الملعونين

وفي ذات مساء من أغطس ارتكب الصدى الجريمة بأن تجراً هذا

القيح بأن استعمل عينيه وتراءى له في الحلم فم وثدى امرأة بيضاء

هذا الجسد الأبيض أيها الصدى الأسود يحث له أن يفكر في إشباع أجزائه الجنسية

فيهم أحياناً الزنجى تحت أسوار مجهولة . لقد قبل لك مراراً إن الجريمة لا تجدى

فقام اثنان ليقيمَا العدالة - اثنان فقط لينفذَا فيك الحكم
اثنان مقابل ربعك الخامس عشر وآمالك في الحياة . وفكروا في الأعمى المجنون
الذي كان يرى

وفي النساء اللاتي يلطخن بالأوحال - وفي السلطان الذي يتهدى
فطارت رأسك وسط عاصفة الضحك المثالي وفي الساكن (القبلات) الخاصة ذات
الهواء المكيف وحول موائد الشراب الطازج حيث ينعم ضميرهم الطيب بالهواء .
وقد رأينا الشاعر الكنفولي « تشيكابا أوتاسمي » يردد ذكرى هذا الفنى بعد سنوات في إحدى
قصائده في ديوان شعره بعنوان « تاريخ مقتضب » :

أى أزهار (نجدها) نعدھا
لذكرى ايميت تيل الصبي

الذي مازالت تدمي روحه نفسى
أما الاستعمار في أفريقيا فإن شعراء الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية لا يعتبرونه تسلطاً سياسياً
واستغلالاً اقتصادياً فحسب ، بل يعتبرونه إذلالاً جنسياً ، فالستعمار له الحق في أن يضاجع
الزنجيات .

وكان من نتائج هذا الامتياز القديم في السيطرة أن كتب الكاتب الأتيلي « بول نيجر » في كتابه
قوة الشراء « يقول : إذا حق للأبيض أن يحب أفريقيا فلأنه لا يجد فيها الغذاء والطاعة والدجاج
بأربعة صلاوى فحسب ، بل لأنه يجد فيها النساء بالئات .
أما « دافيد دبوب » فإنه يعتبر الإذلال الجنسي هو اللوحة الرئيسية التي تلخص على أوجهها فكرة
الاستعمار فيقول :

لقد قتل الرجل الأبيض أبى
وكان أبى فخوراً

فقد اغتصب الرجل الأبيض أمى وكانت جميلة
لقد قسم ظهري أخى تحت أشعة الشمس في الطرقات
وكان أخى قوياً

ثم التفت إلى الرجل الأبيض ومد إلى يدين ملطختين بدماء السود
وفي صوت السيد الأمر صاح بي : هيه أيها الخادم إلى بكرمى

ومنشفة وماء

أما الشاعر السنغالي فإنه حين يتغنى بجمال المرأة السوداء يعود إليه صفاؤه وهدوؤه في تصيدته
«راماكام» وهي أغنية من أجل زنجية .

تعجبنى منك النظرة الشاردة

وفك الذى أشم فيه رائحة المانجو

«راماكاما»

إن جسدك فى سواد القلقل

الذى يرقص الرغبة ويهيجها

«راماكاما»

فحين تحطرين تغار أجمل النساء

من وقع ساقيك اللديفيتين

«باراماكاما»

وحين ترقصين على نغمات الطبول «باراماكاما»

فكأن الطبول جيش متصر

يلهث تحت وقع أنامل ساحر

وحين تحين - حين تحبين باراماكاما

فكأن إغصاراً بتملكك ترتعد منه أجزاء جسمك

كبرق وسط الليل اليبم

فيركنى وقد غمرنى عبيرك «باراماكاما»

كما تغنى أيضاً شعراء الأنتيل «بقينوس السراء» فنجد الشاعر «جى تيروليان» فى تصيدته

«روح البلاد السوداء» ربما يكون قد تأثر بقصيدة «بودلير» بعنوان الجواهر ولكن عشيقته صاحب

أزهار الشر (بودلير) لم تكن مؤلدة كما هى الحال عند «ببروليان» الذى يقول :

أن ثديك المصنوعين من الحرير الأسود بتحفظان ويضيئان

وذراعيك المرنان الطويلتان بلحمها الموج . وهذه الأبتامة البيضاء

أبتامة عينيك وسط وجهك الظليل

توقظ فى نفسى هذا المساء النغمات الحانقة والأبأدى المصفقة والأغنيات الحاملة التى يتشئ لها

هناك في بلاد غينيا أخوتنا السوداوات والعاريات
يعشن في نفس هذا المساء ألواناً زنجية عميقة من الإحساس الجنسي

وقد تعنى سنفور هو أيضاً بالمرأة السوداء فقال :

أيتها المرأة العارية (المتجردة) أيتها المرأة الغامضة

أيتها الثرة الناصجة ذات الجسد البص . يا لفرط الهناء بسبب التبيذ الأسود .

أيها الفم الذي يجعل فمي يتبعني

يا للسافانا التي تمتد آفاقها في نقاء أيتها السافانا التي ترتعد حين

تلامسها نسبات ريح الشرق

أيتها الطويل المصقولة ، أيتها الطويل المشددة التي تن تحت وقع أنامل المتنصر

فصوتك الهادئ الرزين وهو رجع أغنية الحبية أغنية المرأة المتجردة المرأة الغامضة

أيها الزيت الذي لا تموج سطحه ريح - أيها الزيت الهادئ الجوانب الذي يرقد

إلى جوار الرجل القوي (المصارع) إلى جوار أمراء مال

أيتها الغزال التي عليها لمسات المساء والتي يضيئ جسدتها الأسود باللائي كاللجوج

يا متعة النفس التي ينعكس على بشرتك وهج الذهب الأحمر

وفي ظل شعرك الأسود الغزير تستضيئ نفسي القلقة بسناء عينيك .

ولكننا نرى الشاعر نفسه (سنفور) يتعنى أيضاً بالمرأة البيضاء في قصيدته «كاياماجان» فيقول :

إن مملكتي هي مملكة الحب وإن في ضعفاً تجاهك أيتها المرأة الأجنبية

ذات العيون الصافية والشفاه القرمزية كالنضاح المعطر بالقرفة وذات الشهوة كالوقود الملتهب

لأنني مصراعى باب يتر تحت نفض الريح فيه فيحدث صريراً عالياً

لأن جلبة الطبل قوة أفريقيا المستقبلية

فأني تحت خصلات شعر قرى الغزيرة

«ولامين دياحات» تعنى بالمرأة البيضاء كما فعل سنفور وهو من الشعراء فقد تعنى بفتاة

النضاب الشمال الحميلة تماماً كما تعنى بالكهات ميخومار .

أما الشاعر «مارسيل شيدا» فأني إلا أن يكون محدوداً في سكره في ناحية معينة مثل الشاعر

داماس فيقول في قصيدة له :

أيتها الأميرة السوداء

ابني أنتنى بك وأنتنى بمفاتنك
 يا إلهة الجمال الطبيعي التي لا يدانها أحد
 أما أنت أيها المثال الصغير الأبيض يا ذات الشفاه الحمراء
 كلا - حقاً أن جمالك صناعي - صناعي للغاية
 أما الشاعرة الغانية « ايفوا مورج » فإنها تثور ضد تقاليد بني جنسها الباطلة التي تحول دون حبها
 لرجل أبيض فتقول :
 التقاليد والعنصرية
 وأساليبها السياسية الزرية
 كونت مزيجاً بشعاً . ليفرق بيننا
 ولكني يتزع أحدنا من الآخر

المقدمة :

ستقابل حتماً هذه الظاهرة وهذا الموضوع في القصة (الأنتيلية) وكذا القصة الأفريقية -
 فيقص الكاتب « رينيه ماران » في كتابه « رجل كالآخرين » كيف أن رجلاً أسود كاد أن يتخلى عن
 حبه لامرأة بيضاء (أوروبية) .

أما في كتاب « طريق الرعد » وهو قصة علاقة وثيقة قامت بين زنجي مولد اسمه « لاني شكارتر »
 وشابة من البوير تدعى « ساري فليبر » فإن كاتب هذه القصة السيد « بيتر أبراهامز » يريد أن يصور
 التفرقة العنصرية بأبعادها الحقيقية مستنداً على هذه المأساة الفردية ، فيشرح إحدى شخصيات هذه
 الرواية المأساة قائلاً : إن المأساة ليست مأساة « شفارتر » وهذه الفتاة « ساري » ولكنها مأساة هذه
 البلاد (جنوب أفريقيا) والفترة التي تعيش فيها - فالمأساة هي أنه يجب أن تكون أولاً وقبل كل
 شيء مواطناً من سكان هذه البلاد أو مولداً أو يهودياً أو عربياً أو صناعياً أو يونانياً وإلا فلن تعتبر
 مخلوقاً آدمياً - هذه هي المأساة وهي جريمة عصرنا الحاضر . ومن أجل هذا كان على شفارنو وهذه
 الفتاة أن يتحملا الآلام مع كونها مخلوقان آدميان . وأصبح حينها رمزاً على كفاح الإنسان وجهوده
 من أجل أن يكسر هذه الأغلال التي تقيدته .^(١)

ولكن الذي يلفت النظر في القصة الأفريقية التي تعالج الموضوع الذي نعتى به إنما هو صورة

(١) ذكر هذا الدليل في كتاب «صورة أفريقية» للكاتب غزقيل مغاليه ١٨٠ .

المرأة الأوروبية وهي صورة مخالفة تماماً عن صورتها في القصة الزوجية في الولايات المتحدة الأمريكية .

ففى عند الكاتب « جمامد ولين بروكس » أو « سيستر هايمز » أن الزوجة أو العشيقة السوداء تحمل حمل المرأة البيضاء متحدياً جميع المزاغم العنصرية . ففى القصة نجد أن « سولانج » التى أنقذت فى صباها صبياً اسمه « ماميك » الذى كان على وشك الغرق فى النهر الذى يجد أملاك أبيها فى الكونتو . ويحصل الصبى على دراسات لامعة وتواجه سولانج غضب أبيها حين ترغب الزواج من الزنجى .^(١)

وإيزابيلا زوجة « عمر هاى » التى نصاحبة فى بلاد « كذا مانس » وتقامسه أفراده وآلامه وتحمل الحرمان فى بيئة أفريقية يصعب الاندماج فيها وكذا وسط أوروبى يظهر لها العداء علانية . ثم يحاول رجلان من البيض اغتصابها لاعتقاد البيض دائماً أن زوجة الزنجى سهلة المنال^(٢) . (فإن هذا الاعتقاد قديم . فهو أول إهانة فكر فيها عطيل) كما نعرف أنه فى عام ١٧٨٧ نقلت السفينة لأول مرة بعض الزوج إلى سيراليون وكان هؤلاء الزوج قد أعتقوا لكى يقيموا فى هذه المنطقة كما نقلت معهم ستين عاهرة بيضاء التقطن من شوارع لندن وكان عدد الزوج أربعائة زنجى وهكذا تأسست مدينة « فريتون » .

و « لوتس » عشيقة « أودومو » التى التقطته فى لندن وساعدته بحبها ومالها وحين أصبح « ادمو » رئيساً للوزارة فى بلاد لم يشأ أن يحضر صديقه أيام شقائه إلى بلاده ولكن ندمه لتخليه عنها لازمه حتى إن آخر اسم تمم به حين سقط صريعاً كان اسم « لوتس » .

وجاكلين التى تزوجت من « نارا » الطالب الزنجى برغم معارضة أبيها ولعته . و « دينيز » الشيوعية التى أنقذت « كوكومبو » من البطالة ومن الجوع الذى يتهدده بسبب أن عمال المصنع لم يغفروا له فتورته تجاه الحزب الشيوعى . وهاهى « لوسين » ابنة راعى الكنيسة وهى عضو فى الحزب الشيوعى أيضاً فقد أصبحت عشيقة لسامبا ديالو .

وهناك ظاهرة مشتركة بين جميع المنقذات وهى أنهم جميعاً مثل « ديدمونة » نهايتن مؤلمة ، فسولانج تنحصر لأن والدها أراد أن يقتل ابنها وهو حفيده حين وضعته . كما تفقد إيزابيل زوجها الذى اغتالوه ، وتقم لوتس فى لندن وتتقدم بها السن بعد أن هجرها عشيقتها . وتوت جاكلين

(١) قصة قلب الآرية تأليف جان مالويجا .

(٢) قصة . . . يا بلادى وشعى الجميل للكاتب « سامبين عثمان » .

وهي تضع وليدها . وتهلك دينيز إثر حادث مؤلم حدث لسيارة النقل التي كانت تنقلها لتشارك في مظاهرة شيوعية - وتشذ واحدة فقط من بين هذه الأمثلة والصور من النساء المثاليات المنفذات - هذا الاستثناء جاء في جيت توينزا التي ارتكبت سرقة أدبية وذلك بأن نشرت باسمها مخطوط عشيقها الزنجي « ديفالا » الذي قتلها دون قصد خلال نقاش عاصف بينها . وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . وقد كان موضوع القضية بالنسبة للكاتب فرصة ذهبية لكي يعالج موضوع قتل بيضاء يد رجل أسود على الطريقة الأمريكية . فيستدعي أستاذاً من كلية الطب ليبدل بشهادته وفيها يعرض أفكاره عن السود وكيف أن فكرة الجنس طاغية عليهم في رأيه .

وعلى عكس سامين عثمان « الذي أراد أن يسخر وشوه جميع الأدلة التي اقتنع بها المحلفون فإن فريد ناند ابونولم يمتحن أن يرسم صورة لشاب أسود تملكه الرعة في أن ينال امرأة فرنسية من البرجوازية الصغيرة وذلك في كتابه الأخير وعنوانه « طريق أوروبا » تملكه هذه الفكرة حتى ملأت عليه نفسه . ومسرح الرواية في أفريقيا حيث إغراء مثل هذه المرأة أمر صعب بكثير مما لو كان في أوروبا . ومن ناحية أخرى فإن بطل القصة لم يكن مفرماً بالفتاة التي يريد أن ينالها وأن فكرة امتلاكها ما هي إلا نوع من الرهان المحض .

ولكن مدام جروشيبة التي يجعلها زوجها من أجل عاهرات سوداوات لاهتم بالمدرس الشاب الذي يعطى ابنتها دروساً . وفي ذات مساء حين كانت فريسة للفتى نتيجة لمرض ابنتها بالحمى فقد كانت الصغيرة تهذي فإن هذه المرأة التي لم تكن جذابة لدرجة كبيرة وإنما كانت على درجة ترغب فيها . كانت هذه المرأة تبكي وهي نصف عارية مستندة على كتف « برناباس » المدرس الذي لم يعرف كيف يستغل الفرصة ، فقد ظل وكأنه قد تسمر في مكانه .

إن قصة الكاتب أونونو هذه على درجة كبيرة من العنف والقسوة . فاستثناء واحد ، هو استثناء أم البطل فإن جميع الشخصيات في القصة كريمة تدعو إلى السخرية أو لنهاء ، حتى اختيار اسم الشاب الأسود « برناباس » الذي لديه تلك الفكرة الثابتة في ذهنه . وباختصار فالكتاب كله يترك عند القارئ الشعور بأعتراف المزاج .

ولم يشأ الكتاب الروائيون الزنوج أن يعرضوا المشكلة من زاوية الصعوبات التي تقابل الزنوج من الزواج الأسود والبيضاء . أما الفريقان الآخران الأبيض والسوداء فقد لفتا أنظارهم . وقد عالج كل من « سادجى » وكان « باختيارهما بطلات من المولدات . فإن « نيني » بطلة قصة الكاتب « سادجى » امرأة مولدة من داكار وهي تتنكر لعنصرها الأسود ، فهي عشيقة لأوروبي يرحل عن أفريقيا دون أن

يتزوجها - ومع ذلك فإن نبي واثقة من نفسها فقد رفضت في غضب طلب عروض شاب زنجي متطور ليتزوجها . وعلى نقيض ذلك نجد أن « آديل » صديقة « سامبا ديالو » الأتينية في باريس تحس شعوراً بأنها في غير وطنها وتدأخلها رغبة ملحة في أن تعود للتندمج في أفريقيا عند أسلافها . وفي قصتي مابوت كاييسيا بعنوان « إني مارثينية » و « الرثمية البيضاء » تعبير عن نوعية انتماء المرء إلى عنصرين بشريين . وما يترتب على هذا الانتماء من مشاكل للرجل والمرأة .

ولكننا نجد في رواية « كامرالاى » الثانية نوعاً من التفرع المتكرر فإن رواية « نظرة الملك » تروى قصة شاب أوروبي اسمه « كلارنس » يهبط أفريقيا كما يحدث في الأساطير فيبحث عن عمل ولكن بدون جدوى ، لأنه لا يعرف أى مهنة أو حرفة من المهن الأفريقية الموروثة . فهو يجد أن كل شيء في أفريقيا غريب عليه وليس من السهل فهمه ، وحين ينس من النجاح ترك مستقبله في يد شيخ عجوز متسول فاصطحبه معه في طوافه الذى لاينتهى من قرية إلى أخرى حتى وصلا قرية كان مقرراً أن يمر بها الملك فوضع « كلارانس آخر أمله في هذا الملك عله يجد عملاً ما في بلاطه . فأقام في هذه القرية مع امرأة شابة جميلة سوداء في كوخها . فكانت تقدم له كل ليلة شراباً نصفه مخدر ونصفه الآخر مثير للشهوة الجنسية ، ولم يلحظ ذلك إلا بعد شهور طويلة من أن رفيقته هذه تتغير كل ليلة وأنها تختلف عن سابقتها . . . لم يكتشف هذا إلا مصادفة في نزهة حين مر بنطاق بيوت زوجات رئيس القرية العجوز . فقد اختلف إلى كوخه جميع حريم هذا الرجل المسن غير القادر جنسياً وإذا فقد وجد أخيراً العمل الوحيد الذى لا يتطلب دراية وهذا العمل في إنتاج الذرية . وفي هذه المرة يتحرر الكاتب الأسود من عقدة الإذلال الجنسي التى أرادت العنصرية أن تزرعها في نفسه . فقد تحرر منها في سخرية وذلك بصوغ قصة خيالية لا عن طريق المأساة الواقعية الحقيقية .

قبل الثورة

كُتبت « ليليان كستلوف رسالتها بعنوان « الكتاب السود الناطقون بالفرنسية ومولد الأدب » كُتبت فيها تاريخ الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية . فقد مشت خطوة فخطوة وراء ظهور مختلف المجالات التى ديجها المثقفون السود في باريس وتبعث كلا منها خاصة في الفترة التى بين الحربين العظيمين كما حلت تأثير الكتاب الزوج الأمريكيين الموجودين في فرنسا على كتاب جزر الأنيل

والأفريقيين الناطقين بالفرنسية . كما أبرزت أثر الشيوعية والسريرية وجاذبيتها العميقة لهؤلاء الكتاب السود خاصة قبل انتشار وازدهار الحركة الفكرية الوطنية الزنجية بعد الحرب العالمية الثانية . وكان لزاماً على هذه الكاتبة أن ترجع إلى المصادر الأولى وكذا أن تكشف عن الرواد الأول لما قبل الحرب العالمية الأولى - وكان من المفيد أيضاً أن تذهب إلى ما قبل ذلك التاريخ بمدى كبيرة جداً ولكن المؤلفات عن هذه المدة نادرة للغاية .

إذ نجد كتاباً تختلف وجهات نظرهم اختلافاً يئس عن نظرة كتاب وشعراء وروائي الحركة الفكرية الوطنية الزنجية .

رجال مثل « جيمس أفريكانوس . ب . هورتون وليوبولد بانيه » يعتبرون أنفسهم كخدام أمناء للدولة المستعمرة (الاستعمارية) فيبدلون أقصى جهدهم في تأدية أعمالهم بنشاط زائد . فكتاب « هورتون » الذي كان يعمل طبيباً في الجيش البريطاني إبان حملته على ساحل الذهب بعنوان « الطقس الطيب والطبيعي وعلم الأجرام في الساحل الغربي لأفريقيا » هذا الكتاب يحوى مجموعة من النصائح الطبية والصحية لكافة الأوروبيين الذين يمرون بهذا الساحل الذي يوصف دائماً بأنه « مقبرة الرجل الأبيض » .

وكان المؤلف دائماً حسن النية في توايا المستعمرين ولم يحارمه أدنى شك في ذلك ، فقد أهدى هذا الكتاب إلى « ادوارد كامل » وكيل وزارة المستعمرات وقال في إهدائه له : إن هذا الكتاب بمثابة مكافأة لما قام به كامل في سبيل ترقية العنصر الأفريقي » .

والإحساس بالتفاني في خدمة فرنسا الذي قام بها « ليوبولد بانيه » وهو سنغالي كلفته الإدارة البحرية والمستعمرات بعثة استطلاعية تلزمه بأن يعبر الصحراء الكبرى من مدينة سانت لويس حتى مدينة الجزائر ، هذا التفاني لم يكن هيناً . ولكي يقوم بهذه الرحلة كان يضطر ليتنكر في زي مسلم . وقد اتفق مع أحد رجال قبيلة بول في إقليم مازينا أن يشيع أنه لاجئ يريد أن يعتنق الإسلام على يد ولى من أولياء الله « سيديا » في منقة ترارزا . ولكن مشروعه منى بالفشل . ونراه يعبر عن فطنه هذا بلهجة صريحة برغم أسلوبه المنمق الذي يتمشى مع العصر . بهذا كان حماسه لحفل إسلامه (هذا الحفل الذي هو كذبة يستحق عليها العقاب) فهو يصفه وكأنه عيد يحفل به مقدماً فيقول : كم كانت الصدمة قاسية . ففى اللحظة التي كادت أصل فيها إلى مدينة « بوتلميت » كنت أحاطب نفسي قائلاً غداً عندما يسدل الليل ستاره المظلم فيحجب ضوء الفسق الشاحب . سأذهب لأرتمى راکماً تحت قدمي سيديا العظيم والذي بعد أن يخلق رأسى بسيفه المقوس ذى الحدين سيعلن إسلامى أمام

تلاميذه المجتمعين من حوله وبعد أن ينهى هذا الإجراء سأعبر أفريقيا كلها دون أن يزعجني أحد^(١) ولم يمنعه فشله من السفر نهائياً بل سافر ولم يصل إلى الجزائر وإنما انتهى به المطاف عند سوبرا في مقاطعة كوجارور .

أما السنغال الآخر « الأب بولات » فقد كان مدافعاً عن الاستعمار ، فحينما أسس في عام ١٨٤٣ أول مدرسة فرنسية في السنغال شرح في خطاب افتتاحه لهذه المدرسة وصف الأعمال التي ستفتح سياديتها أمام الشباب الأسود - وقد وصف ذلك في أسلوب جذاب للغاية وقد امتدح هذا الراهب بصفة خاصة الحياة العسكرية ومدرسة سان سير الحربية وكذا مدرسة الملاحة أو الميكانيكا التي سيتخرجون فيها بعد قليل لكي يقودوا السفن الحربية الخاصة بالمستعمرة واستمر الأب في حديثه قائلاً : أيها السادة إنكم تعرفون جيداً أن الضباط الفرنسيين لا يستطيعون تحمل الحرطويلا في المراكز المقامة على النهر أو على ساحل البحر وإذا سيخصص لكم هذا العمل النيل يوماً ما يا أبناء خط الاستواء ، وسوف تؤدون هذه المهمة بطريقة مشرفة وسترى بلاد « سينجامين » أي السنغال في يوم من الأيام وسام صليب الشجعان يحل صدوركم .

على أنه يرى أن المواطنين من سكان البلاد يستحقون الرقبة تبعاً لسلوكهم على أن يكون سلوكاً مثالياً وقد ندد في أسلوب لاذع سوء سلوك مسيحي مدينة « جوال » الذين نصرهم البرتغاليون الذين أسوا هذه المدينة في القرن السادس عشر لأن هؤلاء السكان لم يكن لهم من المسيحية سوى بعض المظاهر (على حد تفكيره) إذ عادوا مرة أخرى إلى الخطيئة ولذا فهو يقول : لم يكن زواج الناس بأكثر من زوجة إلى جانب الفساد الأخلاقي الذريع هو العيب الوحيد الذي تألم من أجله المسيحية في مدينة جوال بل إن هؤلاء السكان الذين يدعون المسيحية هم أسوأ سكارى على وجه الأرض . وبالرغم من أنهم أكثر سكان أفريقيا سواداً في لون بشرتهم إلا أنهم كانوا يدعون أنهم بيض وأن بياضهم ناصع ، وكان من أكبر الإهانات لهم أن يقال لهم إنهم سود أو أن يقال لهم إنهم من قوم « سيرير » فهم يجهلون أن يسماوا . سكان جوال البيض وأنهم مسيحيون لأنهم من نسل البرتغاليين مباشرة لأنهم عملوا . وفي اختصار فإن المسيحي يجب أن يكون أيضاً حراً وليس عبداً وأن يكون له الحق في الشراب ووسائل تعايطه . .

وبعد مضي خمسين عاماً أي سنة ١٩١٢ نرى سنغالياً آخر لا يتحرز في حديثه بل يرسل الكلام

(١) ورد في مقال بعنوان قصة رحلة من السنغال إلى السوربا . ورد هذا المقال في مجلة الاستعمار عدد نوفمبر سنة

على عواهنه صريحاً يوجهه إلى الحاكم العام لأن هذا الحاكم كان يعتقد مزاعم باطلة عن بني جنسه .
إنه الكاتب « أحمدو دوجاي كليمرور أو أحمدو فبرجاي كليدور نائب رئيس الاتحاد السنغالي في
نشر اللغة الفرنسية الذي كتب ذلك في مقدمة رسالته الصغيرتين التاريخيتين وعنوانها : معركة
جويل ومن قيد هرب إلى كوبلاني . ويوضح المؤلف أنه كتب الكتاب في سنة ١٩١٢ وفي عام
١٩١٣ حينما كان يتشرف بالانتماء إلى هذه الفئة الرائعة التي كان يصفها السيد أرنت روم بالحفارة
وهي فئة المدرسين التابعين لقانون العاملين من سكان البلاد الأصليين فإن هذا الحاكم العام
الذي اتضح أنه حاكم عظيم في تشييد الموانئ والسكك الحديدية لم تكن له دراية ولا سياسة تتعلق
بسكان البلاد الأصليين ، ذلك لأن السيد ماريال سكرتيره العام كان يرشده (الحاكم)
بإرشادات سيئة لأنه لم يكن يحب الزواج والذين بدورهم يبادلونه هذه الكراهية - أضعافاً
مضاعفة ، ففى عام ١٩٠٤ طردنا خارج رابطة زملائنا في العمل الذين يتمون إلى الدولة الأم
(فرنسا) .

إن هذه المقدمة لتعد مستنداً ثميناً . ذلك أن الكاتب يصور مشكلة تغيير في الواقع أكبر بكثير من
أنها مشكلة صغيرة تتعلق بالموظفين . كما أنها نقطة تحول في سياسة فرنسا الاستعمارية إذ تخلت فرنسا
عن القيام بالإدماج الصحيح (أى معاملة المستعمر بالمثل كالمتعمر) وبدأ تمييز بين موظفين من
السكان المحليين وموظفين من الدولة المستعمرة ، فيذكر كليدور تأييداً لمطالبه التي تعنى معاملته معاملة
الموظف الفرنسي يذكر : أعماله إبان الحرب وبطولاته وتضحياته الدامية وإخلاصه لفرنسا - تلك
الأعمال التي قدمها أبائنا أيام الثورة الفرنسية الكاسحة وأيام حكومة القنصلية وحكومة الإمبراطورية
وما قام به الأبناء الذين خاضوا الملحمة السنغالية تحت قيادة فايدرب وبينه لايراد وبيردى ليل
وكانارد^(١)

وفي غداة الحرب العالمية الثانية أثار الأفريقيون تضحيات المحاربين القدماء منهم حتى يجعلوا
مطالبهم مسموعة ، ولكن سرعان ما كفوا عن هذا الحديث والوصف الذي يتحدث عن حسنات
المواطن الفرنسي ليطلبوا بالامتثال .

(١) أن الكاتبين السابق ذكرهما قد نشرنا للمرة الأولى تفصيلين ، أحدهما في سنة ١٩١٣ والثاني سنة ١٩١٣
ثم أعيد نشرهما للمرة الثانية معاً في سنة ١٩٣١ مع مقدمة من يلزدياج ثم نشرنا للمرة الثالثة تحت اسم آخر لمؤلف آخر
هو أحمدو محموديا وذلك حسب مؤلفات أفريقيا الغربية الفرنسية للسيد جوكلا . وليس في أيدينا سوى نسخة من
طبعة سنة ١٩٣١ التي أصدرتها حكومة السنغال .

وعليه فإن المراحل القليلة النادرة والغالية الثمن في نفس الوقت التي شكلتها مؤلفات ليوبولد بابنه والأب بولاه وجيمس أفريكا نوس . ب . هورتون وأحمد وندباي كليندور هيأت لنوع من التطور . فبالنسبة للكتاب الثلاثة الأول والذين كتبوا قبل عام ١٩٠٠ فإن الاستعمار يعنى عملية ارتفاع بشرى ولذلك فهم يؤيدونه - أما بالنسبة للكتاب الرابع الذى كتب بعد نصف قرن فإن الأمر يتعلق بالدفاع عن الحقوق التي منحتها للأفريقيين سياسة المثل التي طالبت بها ثورتا سنة ١٧٩٨ ، وسنة ١٨٤٨ .

ومع ذلك فقد نشأ أدب الاحتجاج الزيجي في القرن الماضي على لسان كتاب إلغاء الرق ، وفي هذه المرة ترى هل يعود أفريقيو القرن التاسع إلى أحضان الاستعمار في حين أن كتاب الأفريقيين في القرن الثامن عشر كانوا يفضحون الرق ، وهل يكون سبب هذه العودة أن الدول الكبرى التي بدأت في تكوين إمبراطوريات لها في أفريقيا في هذه الآونة كانت هي الأخرى ضد تجارة الرقيق . ؟ نجد أن الأب ميبى عند مشاركته في مؤتمر روما يعلن في وضوح ضرورة إلغاء الرق خاصة عند سكان أفريقيا الشرقية حيث كان الرق تمارسه فئة من التجار المسلمين ، وحيث حرر الإنجليز والألمان كافة العبيد . وقد تأسست مدينتا فريتون وليرفيل ، على الساحل الغربي ، ولعل اسميهما يدلان على هذا التحرر وقد جعلتا لاستقبال هؤلاء العبيد المحررين .

وقد صاحب جو الثقة الذي ظهر عند فئة المثقفين الأفريقيين - الذين يعملون في المستعمرات - إلغاء الرق كما صاحب أيضاً سياسة التطور الاجتماعي . وبذا فقد وصل الزوج والمولدون إلى أرفع المناصب ، ولتعطى مثلهم لذلك ، فالجنرال « دودز » الذي غزا داهومي لحساب فرنسا في نهاية القرن الماضي كان من المولدين . وفي نفس الوقت كان أول أسقف أفريقي (للكنيسة الإنجليزية) في النيجر هو الأسقف « اجاي كروتر » وكان عبداً حرره الغزو الاستعماري .

وكان إلغاء الرق مثلاً من عديد الأمثلة المعموسة لسياسة الدولة الكبرى الاستعمارية التي من شأنها أن جعلت نخبة المثقفين الأفريقيين يثقون فيما تصدره أوروبا من آراء ومبادئ إنسانية .

فالأدب الزيجي الذي عنى بالرق قد قدم من ناحيته طوال خمسين عاماً البراهين على تطور وتقدم ملموس . فإن « جاك ايليزا جان كاييش » شاب أفريقي بيع كعبد لملاح هولندي وهو في سن الثانية عشرة . ودخل الجامعة في سن العشرين (جامعة ليد) وبعد خمسة أعوام ، أي في عام ١٧٤٢ كتب بحثاً سياسياً ودينيّاً عن الإبقاء على الرق لأنه لا يتعارض مع نشر الدعوة الدينية - كتب هذا البحث معتقداً أو متظاهراً بالاعتقاد بأن الرق يساعد على نشر الدعوة الدينية . وقد هاجم الأب

« جريموار » في سخط شديد هذا الرأي . حتى أن الكاتب « دى جرافت جونون » قد ذكر أن حياة هذا الشاب « كاييس » كانت شؤماً ووبالا عليه إذ عين راعياً لكنيسة (المينا) في ساحل الذهب وهي مركز من مراكز تجارة الرقيق الهولاندى . فكان موضع احتقار الأوروبيين بسبب لونه (لون بشرته) ولأنه كان عبداً رقيقاً من قبل ، كما لفظه مواطنوه فأصبحت حياته مريرة حتى أنه مات في سن الثلاثين .

وبعد أقل من خمسين عاماً نجد مؤلفات كل من « انيللو وكيجواتا وجوستانوفاسا واحنانيو سانتو ، كانت هذه المؤلفات صادرة عن وحى مخالف . فهؤلاء الكتاب السود وهم من العبيد المحررين - بل وكان الكثير منهم من مواليد أفريقيا - قد فضحوا النفاق المضى في بيئة تدعى التسك بالديانة المسيحية ، ويؤكدون وجود الرق . فقد نشر « انيللو » مقالا في عام ١٧٨٨ في بليتمور بعنوان : بحث ضد الرق - يهدثنا عنه الأب جريموار فيقول : إن هذا البحث (بحث انيللو) يصف في أحرف من نار مدى الألم والدموع التي يذرفها الأطفال المحفنون والأصدقاء المبعدون عن ديارهم - هذه الديار العزيرة دائماً عليهم والتي يفسر مدى حبيهم لها هذه المعتقدات البسيطة التي تخامرهم دائماً في أنهم سيعدون إليها حتماً بعد وفاتهم .

كما نشر « أوتوياه كيجواتا » الذى ولد في ساحل فانين الذى تزوج من إنجليزية عاش معها في لندن . نشر كتاباً بعنوان « آراء عن تجارة الرق والرقيق الزوج »^(١) . يدعو فيه أن تنزل السماء الصواعق على الرق والأرقاء معاً . ويقول أيضاً : ففى أوروبا التي تزعم المدنية وتدعيها فإن الأوروبيين يضعون السلاسل والأغلال كما يشقون اللصوص ويبحثون بالقبيلة إلى آلات التعذيب ، وإذا كان تجار الرقيق والمستعمرون لا تنطبق عليهم هذه العقوبات السالفة فذلك لأن الشعوب والحكومات تحميمهم لأن القوانين تشجع تجارة الرقيق وتزيد الرق وتبيحه . وقد توقع السماء عقوبات قومية على مرتكبي الجرائم القومية غير أنه عاجلاً أو آجلاً فإن الظلم يرد على مرتكبيه . ونجد أن اللهجة التي يكتب بها « اينانوس سانتو » في عام ١٧٨٣ تجدها أكثر اثراً ولكنها حازمة أيضاً فهو يقول : وفقاً للتخطيط الإلهي « التاموس الإلهي » فإن التجارة يجب أن تم الأرض جميعاً بأن تنتشر المنتجات في أنحاء العالم ولا ينبغي في منطقة بذاتها حالة يفرضها الإحساس بالحاجة المتبادل بين الأمم وصلات الإخاء والمحبة بينها وكذا سهولة انتشار العالم الصالحة في الكعب المدينة كالإنجيل . ولكن . . . هؤلاء الأفريقيين اليؤماء الذين وهبهم واختصهم السماء بأرض غنية

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية عام ١٧٨٨ .

ياجنة الزرع ، هؤلاء هم أبأس من في البشرية بسبب تجارة الرقيق الرهية ومن يقوم بها المسيحيون . كما أن نداء « جوستافوس فاسا » الموجه إلى البرلمان الإنجليزي في سنة ١٧٨٩ والذي يقدم فيه مؤلفه يدافع فيه عن قضية إلغاء الرق . وقد ديج هذا النداء في أسلوب رزين ملىء بالاحترام . فهو يجب بالأخلاق المسيحية وبتقاليد إنجلترا التحررية .

ومن المقطوع به أن الشقة التي تفصل بين كتابه « كايش » من ناحية وبين ماكتب بعدها بثلاثين أو أربعين عاماً من ناحية أخرى تدل دلالة واضحة على وجود أزمة في الضمير الأوروبي . فقد كان « كايش » منزعجاً في مدينة « ليد » حيث يستطيع تقدير موقفه ، فقد كان الأسود الوحيد في مدرسة لاهوتية وكان بلاشك ضحية لأساتذته - في حين أن المثقفين المنحرفين من الإنجليزية وكانت غالبيتهم يتمون إلى طبقة النبلاء - كانوا على العكس يشجعون الأرقاء المحرفين لكي يسهموا في حركة إلغاء الرق . ومن بين من كتب في كتاب « جوستافوس فاسا » نذكر أرويلز ودوق يورك ودوق كمبولاند ودوق بدفورد ودوق مارلبورو . كما كان دوق مونتاجرمي « اجنايئوس ساتشو » .

ومن المحتمل أن نلاحظ علامات لتطور الفكر عند الأفريقيين أثناء الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى حتى وقتنا الحاضر . فلم ينبغ عن ملاحظة « هنري كوبا » عند دراسته للأدب الجزائري : الأدوار الثلاثة للأدب المغربي ، وهي « عصر الاستعمار والأدب الأجنبي » وأصحابه من الأوروبيين غالباً ثم « عصر الوثائق » التي تشهد بحالة الشقاء المقم ، ولكنها لا تنادي بالكفاح بطريقة عليية وثالثاً الفترة التي يندمج فيها الكاتب في الكفاح وتكون فيها الكتابات ثورية صرفة ، وتستطيع عمل تقسيم مماثل لهذا التقسيم للأدب الأفريقي الزيمبي فالذي لاشك فيه أن بعض المثقفين الزنوج قد فاسوا أيضاً من « عقدة الإقليمية » التي يكشف عنها « كريبا » في هذا النوع من الأدب وهو أدب الوثائق والاستشهاديات المغربي وسيكون من السير تتبع التطور عند بعض الكتاب الذين في مسهل حياتهم الأدبية والعملية يدون وكأنهم تلاميذ للمستعمرين ثم انضموا أخيراً إلى الفئة التي تكشف عن فضائح الاستعمار . ولكن الذي يثير الاهتمام هنا هو فكرة الرأي المخالف أو التظاهر بها على الأقل وهي أن الرعيل الأول الذي صاح منادياً بالثورة قد وقع تحت تأثير وتعدير رجال الدولة لهم إلا نفر قليل كان يختلف عنهم تماماً أمثال « ليوبولد سفنور وسيكوتوري » . وهناك حادث له مغزاه من هذه الناحية وهو حادث الزمارة التي اكتشفت في غينيا عام ١٩٦١ وهي التي جعلت إدارة الحزب الديمقراطي تواجه مواجهه صريحة هيئات المدرسين . حتى أن

أخصائى الشئون الفنية فى المجلة الأسبوعية التونسية . ر . ج جيتون حين نشر مقاله محللا هذه المؤامرة فى هذه المجلة « مجلة أفريقيا الفنية » ذكر أن سيكوتورى قد لام هذه الهيئة (هيئة المدرسين) وعاب عليها من عدة شهور سابقة على أنها كونت « حزب المثقفين » وبذلك فقد آتهموا فيها بعد وكان منهم المؤرخ « جيريل تامس نيان » مؤلف كتاب « امبراطور شعب موندانج المسمى سونديانا وكتاب التاريخ الذى اشترك معه فى كتابته المؤرخ الفرنسى الماركسى « سوريث كانال » .

والإنذار الذى وجهه سيكوتورى إلى المثقفين الذى ذكره « جيتون » لم يكن الإنذار الأول . فقد أهتم رئيس جمهورية غينيا مرات عديدة بمشكلة هذه الفئة المثقفة وما تثيره من مشكلات . ففى رسالة إلى المؤتمر الثانى للفنانين والكتاب الأفريقيين فإنه أصر على أن يعقد هؤلاء المثقفون عن أذهانهم المفاهيم الاستعمارية وأن يبتكروا بالشعب وأن يتصلوا به . . . وقال سيكوتورى : إن المثقفين أو الفنانين المفكرين والباحثين لا يمكن أن تكون لقاءاتهم ذات قيمة إلا إذا ساهموا حقاً فى حياة الشعب وأن يندمجوا بطريقة فعالة فى العقل والتفكير وفى آمال السكان .

ولم تكن ثقة « فانون » بأقل من سيكوتورى فى هذه الفئة المثقفة أى المثقفين البرجوازيين الوطنيين فى الدول المستعمرة . ودون أن يحيط من قدر الدور الإيجابي والتقدمى الذى تقوم به هذه الفئة فى الكفاح من أجل الاستقلال إلا أنه مع ذلك يبين فى كتابه « الملعونون فى الأرض » قائلا : إن المثقف المستعمر قد غمى كل رغباته الهجومية التى ينجفها وراء التشبه بالمستعمر - فقد شحذ كل هجومه لخدمة مآربه الخاصة وفوائده الشخصية . . . وهكذا نشأت فى سهولة طبقة العبيد المحررين . نشأت طبقة فردية (أى تسمى لمنفعة الفرد) وأن ما يطالب به المثقف هو مضاعفة عدد المحررين وإمكان تنظيم طبقة حقيقية من هؤلاء العبيد المحررين . . . ويختتم « فانون » حديثه بقوله : إن الدواء الحقيقى لهذا المثقف الذى تعلم فى مدارس الدولة المستعمرة هو العودة مرة ثانية إلى أحضان الكتلة الشعبية والاحتكاك بها .

كما أن سفور يحس خطر المثقفين لأنه يرى فيهم بذور طبقة اجتماعية . ويكتب رئيس جمهورية السنغال قائلا فى كتابه « الطريق الأفريقى نحو الاشتراكية » : لا توجد طبقات تحارب بعضها الآخر فى مجتمعنا هذا المكون من الزنوج والبربر . ولكن توجد فئات اجتماعية تتصارع من أجل النفوذ . وأنها فى المستقبل القريب ستحارب كل واحدة منها الأخرى إذا لم تتحرر من ذلك وإذا نحن تركنا المثقفين وأصحاب المهن الحرة والموظفين والمستخدمين وحتى العمال يؤلفون طبقات تضطهد وتغتر بالفلاحين والرعاة والصناع . فيجب إذاً على الأحزاب وعلى الحكومات أن

تبقى بقضة حتى تمنع حدوث ذلك .
وكما رأينا أن تعريف سنغور وتورى للمثقفين قد تعدى بعض الشيء معنى الكلمة في حد ذاتها
بينما يظل الكاتب « فانون » أقرب إلى المعنى الأصلي لهذه الكلمة . فالكاتب الأنتيل يوضح فكرته
ويقول صراحة إنه يقصد المثقف المستعمر . ولكن هؤلاء الكتاب الثلاثة يقصدون طبقة بوجوازية
تلك الطبقة التي يسمي إليها بصفة عامة كتاب ومفكرو الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية . ويقولون
لهم بوصوح إنه يجب عليهم ألا يتضامنوا مع هذه الطبقة البرجوازية حتى يظلوا في طبيعة الثورة .